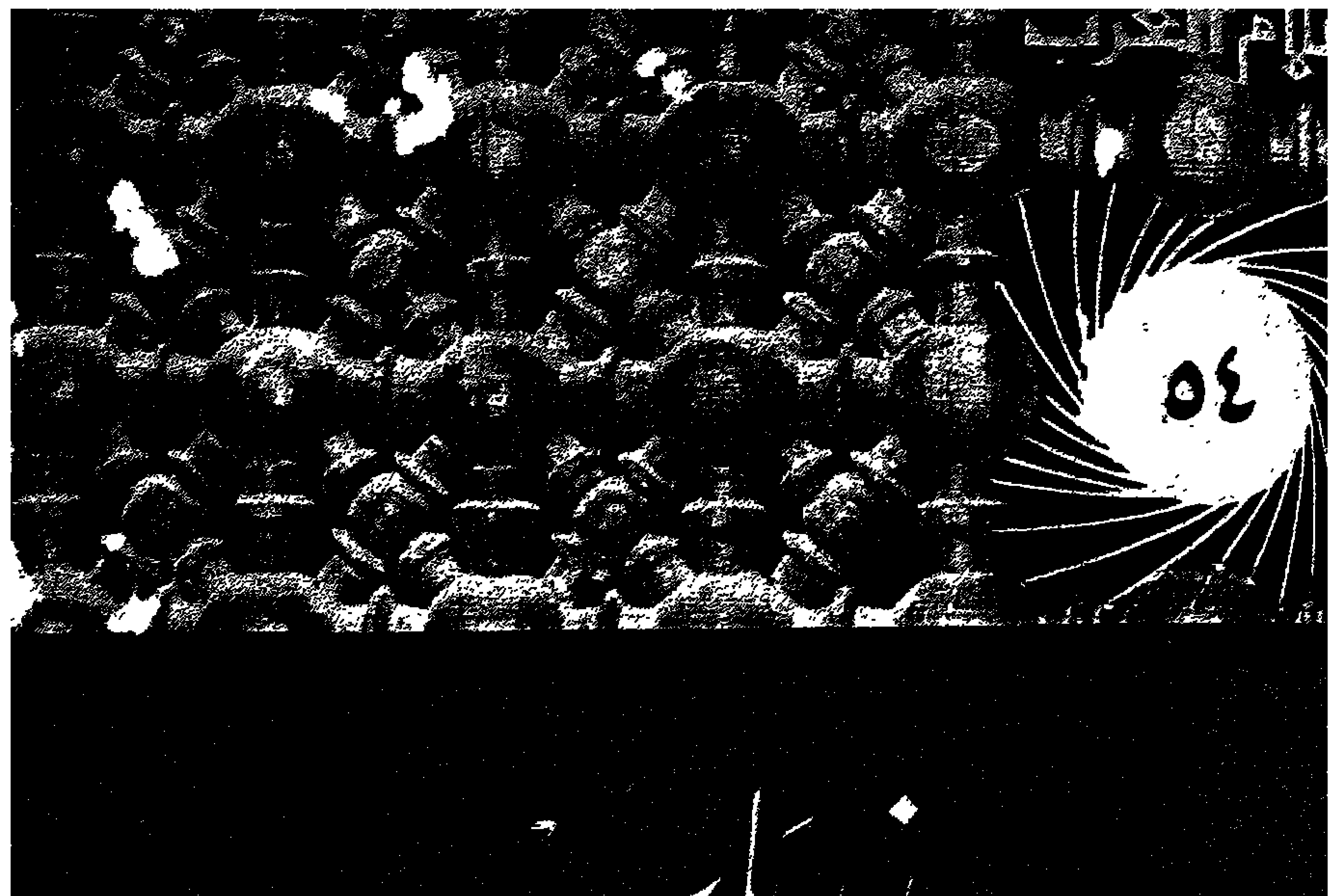


زرياب

أبو الحسن علي بن نافع

موسيقار الأندلس

الدار
المصرية
للتأليف
والترجمة

أعلام العرب

٥٤

زرياب

أبو الحسن علي بن نافع

موسيقار الأندلس

بقلم

الدكتور محمود أحمد الحفني

الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ ـ ٩٠٥١٤٧

مقدمة

كان طبيعيا بعد صدور « اسحاق الموصلى » فى سلسلة أعلام العرب أن يكون موضوع « زرياب » هو الكتاب التالى من أعلام الموسيقى فى هذه السلسلة . ومردّ هذا أن زرياب تلميذ اسحاق وصورة صادقة من فنــه ، واذن يعتبر تاريخه امتدادا لتاريخ أستاذه .

وموضوع زرياب متسع الجوانب متعــدد النواحى ، فان اقامته لم تقتصر على بلد واحد أو قطر واحد ، بل عم نشاطه الأقطار العربية فى مشرقها ومغربها حتى الأندلس ، مما أمكن معه تقديم صورة شاملة عن الحضارة العربية فى أزهى عصورها من الخليج الى المحيط .

وكما عنيت فى الفصل الأول من هــذا الكتاب بتصوير الجو الذى أحاط بزرياب فى بيئته ونشأته ببغداد ، كذلك عنيت بعد ذلك فى فصول أخرى بعــرض موجز لحالة القيروان قبل قدومه اليها وأثناء اقامته بها ، كما تعرضت فى ايجــاز لملامح الصورة التى كانت قائمة فى الأندلس بما يوضــح طبيعتها وجو الحياة فيها ونظرة أهلها الى الموسيقى قبل رحلة زرياب اليها وبعد اقامته بها .

وزرياب فى حياته وتنقلاته بين البلاد العربية يمثل وحدة الوطن العـربى الذى تنقل فى أرجائه من بغـداد الى شمال افريقية الى الأندلس ، مما يؤكد حقيقة أن جميع البلاد العربية وطن لكل عربى .

ونحن بهذا الكتاب تقدم مثالا يحتذيه الشباب فى العصامية والطموح والكفاح ، وتجنب اليأس والاستسلام ، ومقـاومة الشدائد والمحن ، والصبر والصمود دون تخاذل أمام مناوأة الحساد ومكايدة الحاقدين وان علت مكانتهم وطغى سلطانهم ونفوذهم .

وقد سجلنا فيه فصلا أوضحنا به مدى تأثير زرياب وتأثير الموسيقى العربية فى موسيقى الغرب . ولم يكن المقصود من ذلك مجرد الاستعلاء والمفاخرة ، فان هذا لن يقدح فى فضل ما يستمتع به العالم كله من تراث الموسيقى الغربية فى عصرنا الحديث . وان حديثنا عن بناة الأهرام من أجدادنا وما خلدوا من آثار دلت العالم على براعتهم فى علوم الفلك والهندسة والرياضيات وغيرها ، انما هو توعية وحفز للجيل الحاضر الذى استطاع أن يبنى بلداً ويخلق أمة ، وكذلك لأبنائنا وأحفادنا من الأجيال القادمة الذين ننتظر على أيديهم ما هو أعظم وأجـل شأنا . فتصل الموسيقى العربية بفضل جهودهم الى المستوى الرفيع بين موسيقات العالم ، وبما يتفق والمكانة الدولية للجمهورية العربية المتحدة ومركزها القيادى .

وقد طرقنا فى هذا الكتاب عدة موضـوعات لم نسترسل فيها وان كانت جـديرة بذلك ، كالموشحات وأثر زرياب فى الاتجاهات التى نهضت بفن الغناء وصناعة الآلات مما أشرنا اليه فى ايجاز مراعاة لمقتضيات الكتاب . واننا لنطمع فى أن يمتد جهد طائفة من الباحثين ومن أسـاتذة المعاهد الموسيقية الى استكمال هذه البحوث وأمثالها ، بما يزيد الفن ثروة وازدهارا ..

الفصل الأول

النشأة والبيئة

- النشـــأة الأولى .
- البيئـــة .

النشأة الأولى

ان الميلاد الغامض بين الأطمار والمجاهل من الأحياء ومن غمار الناس لا ينزل بمكانة صاحبه ، ولا يجعله صغير الشأن ولا مهين القدر . قد يولد الناشىء من أبوين معدمين ، عضهما الفقر بنابه ، وضنت عليهما الدنيا حتى بالصبابة من العيش ، فيظل مغمورا كما لو هبط من السماء أو خرج من باطن الأرض ، وقد أنكر الزمان عليه خلقه ووجوده . فلا يعبأ التاريخ بميلاده ولا بتسجيل اليوم الذى خرج فيه الى النور ..

وقد تمتد به المحنة فيطالع هذا الطفل دنياه بوجه يشبه حظه سوادا . وقد يهبط به الحظ المنكود أكثر وأكثر فاذا به فى عداد السلع يباع ويشترى فى سوق العبيد ...

على أن جميع هذه المحن لا تقف عقبة فى سبيل العبقرية والنبوغ . فاذا بنا نجد ذلك الطفل ينمو ويزدهر ، فما يكاد يواجه اقبال الشباب حتى تسفر حياته المظلمة عن موهبة فذة تتحدى أكبر الفنانين فى زمانه ، وفى حضرة أكبر خليفة . ثم لا يتهيب التنقل بين الأقطار والبلدان ما دام هو مطمئنا الى ما هيأته له شخصيته النفاذة من قدرة وطموح يحبوه بالرزق ويضمن له العيش السعيد .. ثم يبلغ به الاعتزاز بالنفس الى حد لم يسمح فيه للسلطان فضلا عمن سواه ، وهو غريب فى

أرضه وفى قبضة يده ، بتوجيه اهانة اليه وتعييره بلونه الأسود .
ثم يتجاوز المألوف والمعهود فى مثل موقفه فيطلب الى هـذا السلطان أن يكون السلاح هو الذى يقضى بينهما ، ولا يكون اللون هو الحكم والفيصل بين أقدار الناس .. ثم تدفعه العزة والاباء الى مغادرة تلك الأرض التى جهلت قيمتـه وجحدت قدره ، فيتابع مسيره فى أرض الله ، يمشى فى منـاكبها ويأكل من رزقه ، واثقا بأن نصيبه منه لن يفوته مادام مؤمنا بذاته واثقا من مقدرته الشخصية على اجتياز الصعاب والتغلب على العقبات..
ويسوقه الطالع الأيمن الى بلد ناء يستقبل فيه استقبال الغزاة والقادة . ثم لا يمضى القليل من الزمن حتى يثبت أنه الضـوء الذى يشـع فى رحاب وطنـه الجديد ، ثم يتخطى أسـواره وجدرانه ليضىء فى أكثر من مكان وأكثر من وطن والتـاريخ الذى تنكر له طفلا فلم يحفل بتسجيل مولده سيتغنى بآثاره المبكرة وكأنما يلتمس التجاوز عن تجاهله اياه فى نشأته وينشر بين الجميع ذكراه ويتولى تمجيد مآثره وتخليد الثناء عليه ...
فمن هو اذن ؟

انه ذلك الصبى الأسود اللون ، الذكى الملامح ، المستدير الوجه ، الذى كسا شعره جبهته وانسدل حتى حاجبيـه .. أبو الحسن على بن نافع ، الذى عرفناه وعرفه التاريخ باسم زرياب .

وتحدثنا أكثر المراجع أنه لقب بزرياب لسواد لونه وفصاحة لسانه ، تشبيها له بطائر غرد أسود . الا أنه قد ورد فى المعاجم

اللغوية أن « زرياب » بكسر الزاى هو الذهب أو ماؤه معرب عن الفارسية . وليس ثمة ما يمنع من قيام التفسيرين معا بالنسبة لعلى بن نافع اذ لا تناقض ولا اختلاف بينهما . فهو فى منزلة الطائر الأسود الغرد الذى أطلقوا عليه اسمه من باب التشبيه . وهو أيضا صاحب الصوت الذهبى الذى يساير تفسير المعاجم وهو جدير به .

وقد أطلق اسم « زرياب » على مغنيـــة ليست بســـوداء اللون ، هى « زرياب الواثقية » احدى المغنيات الشهيرات فى العصر العباسى الأول ، وقد توفيت حوالى ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) وأشار اليها صاحب الأغانى وغـيره أكثر من مرة . وليس فى أخبارها ما يدل على أنها سوداء . كما أن زمانها لم يكن بعيدا كل البعد عن عصر على بن نافع .

أول عهدنا بزرياب أنه كان أحـــد موالى الخليفة المهدى (١٥٨ هـ / ٧٧٥ م — ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) . ثم لا نعلم تاريخ مولده على وجه التحديد ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من أعلام الشرق وعباقرة الغرب الذين لم ينتبه اليهم التاريخ الا بعد أن نبه ذكرهم وعلا قدرهم . وفى الصدارة من أسباب ذلك الاغفال أن المؤرخين قديما لم يكلفوا أنفسهم الجهد بتأريخ هؤلاء مهما سما فنهم وتوالى الحديث عنهم ، وانما كان جل اهتمامهم منصرفا الى تسجيل أعمال الملوك وأخبار كبار القواد والأمراء ، ولا يكترثون الا لأصحاب الحول والطول ومن فى وسعهم البذل والعطاء . أما هذا المولود ذو البشرة السوداء المغموز الأصل

والمعدن ، والذى تجرى حوله المساومة بالبيع والشراء فى الأسواق فماذا عسى أن تكون أهميته التى تحملهم على العناية بأمر نشأته وتحديد يوم ميلاده ..

على أنه قد يستفاد من مراجعة مجموعة التواريخ التى تصادفنا فى حياته بعد ذلك أن ولادة زرياب كانت حوالى عام ١٦٠ هـ (٧٧٧ م) أى أنه عند وفاة المهدى كان زرياب ما يزال صبيا لم يتجاوز التاسعة من عمره [1] .

ونظرا لما توسمه فيه مولاه الخليفة من مخايل النجابة وفصاحة اللسان فقد منّ عليه بالعتق وتمتع بالحرية فى مطلع فجر الصبا . وقد عاصر بعد ذلك من الخلفاء فى بغداد الهادى ابن المهدى (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ــ ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) ثم هارون الرشيد (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ــ ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) الذى أتيح لزرياب أن يغنى بين يديه .

وكذلك تبدو المراجع القديمة خلواً من ذكر أى شىء عن

---

(١) ورد فى كتاب الاغانى ج ٥ ص ٢٢٢ (طبعة دار الكتب) ان مغنية اسمها صلفة (بكسر الصاد وفتح الفاء) اشتراها الخليفة المقتدر بالله العباسى (٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م ــ ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م) أو والده المتضد بالله (٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م ــ ٢٩٥ هـ / ٩٠٨) من زرياب . ولا يمكن أن يكون البائع زرياب الموسيقار لتباعد الزمان والمكان بينه وبين الخليفتين المذكورين . وربما كان ابو الفرج يعنى المغنية زرياب الواثقية ، ذلك لان المهدى الذى كان زرياب أحد مواليه ولد عام ١٢٧ هـ وتوفى عام ١٦٩ هـ . والرشيد الذى غنى زرياب بين يديه قبل ان يشتهر ورحل من بغداد فى زمانه ولى عام ١٧٠ هـ وتوفى عام ١٩٣ هـ ، وعبد الرحمن بن الحكم الذى عرف باسم عبد الرحمن الاوسط ولى امارة الاندلس عام ٢٠٦ هـ وتوفى عام ٢٣٨ هـ وقد دخل زرياب الاندلس فى أوائل حكمه .

أسرته وعن موطنها الأصلى ، ولم تحدثنا عن أول من نزل من عشيرته مدينة بغداد . ولكن تلك المراجع تناولت الحديث عن الموالى بصفة عامة وخصوصا السود الذين يعد زرياب واحدا من عشيرتهم وأحد أفراد جنسهم .

كان الزنوج ضمن العناصر التى ازدحمت بها بغداد فى هذا العصر وكان لهم أثر كبير فى مختلف نواحى الحياة ، وكانوا فى الغالب يستقدمون من سواحل افريقيا الشرقية . وقد عرفوا بالشجاعة النادرة واحتمال مشقة القتال . وكانوا فى كثير من المعارك الحربية ينضمون الى فرق الجيش العباسى فيزداد الجيش بهم قوة ومنعة . والى جانب هذا كان لهم فى الناحية الاجتماعية نشاط ملحوظ . كما كانوا يطلقـــون كلمة « الســـود » أو « السودان » على ما يشمل الأحباش أيضا . وقديما اتصـــل هؤلاء السود بالعرب فكان منهم بلال الحبشى مؤذن رسول الله ، ومنهم سعيد بن جبير سيد التابعين الذى قتله الحجاج . وكان من شـــعرائهم فى العصر الأموى الحَيقـُطان الذى هجا جريرا وفاخره بالزنج فقال :

والزنج لو لاقيتهم فى صفهم لاقيت ثم جحاجحا [1] أبطالا

وكان معروفا عن الزنج أنهم يتسمون بطلاقة اللسان ، ووفرة الحديث ، وشدة الأبدان ، وقلة الأذى ، وطيب النفس ، وضحك السن ، وحسن الظن . واشتهر الزنج الحقيقيون بصفاء الخلق ،

---

(١) جحاجح : جمع جحجح وهو السيد .

ورجاحة العقل ، ومعرفتهم بالحساب والفلك وأسرار الطب وفنون التصوير والصناعات . وقد نبه من هؤلاء السود فيما بعد كافور الاخشيدى الذى حكم مصر والشام ، وكان عبداً أسود اشتراه الاخشيد بثمانية عشر دينارا . وقد مدح المتنبى سواده فقال :

فجاءت به انسان عين زمانه
وخلّت بياضا خلفها ومآقيا

ومن قديم كان للبيض نساء من السود ، فأعشى سليم كانت له دنانير بنت كعبوية الزنجي وكانت زنجية وقد رآها تكتحل فقال :

كأنها والكحل فى مرودها   تكحل عينيها ببعض جلدها

وقد تزوج الفرزدق « أم مكية » الزنجية وكان يؤثرها على جميع نسائه ويثنى عليها فى شعره .

وكثر استخدام هؤلاء السود فى العصر العباسى فامتلأت بهم قصور الأمراء ومنازل الأوساط حتى بيوت الفقراء .

ومن طبيعة الزنج ميلهم الى المرح ، وعدم احتمالهم للهموم ، كما امتازوا بأن الرقص والايقاع فطرة لهم وطبع فيهم ، حتى قيل : « لو وقع الزنجى من السماء الى الأرض ما وقع الا بايقاع » .

البيئـــة

ان البيئة التى استقبل فيها زرياب صباه وشبابه قد أهلته للكثير من ضروب الفنون وألوان الخبرة بشئون الحياة المختلفة . فلم يقتصر نبوغه على فنون الموسيقى والغناء فحسب ، بل كان فوق ذلك شاعرا مطبوعا وجامعا لكثير من أنواع المعـــرفة ، عالما بأحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء . وكان أيضا راوية ومحدثا اكتملت فيه جميع صفات الندماء .

وحسبه أن تكون بغداد هى المدينة التى شب فيها وترعرع وتأثر بأوساطها وبيئاتها وبثقافتها ومدنيتها ، وعاشر أعلامهـــا وعلماءها وأساطين فنانيها .

لقد بزّت بغداد فى عصر العباسيين سائر المدن بما بلغته من أسباب المدنية الزاهرة التى لم ترق اليها مدينة سواها . فكانت بحق زهرة المشرق وجنة الدنيا . شيّدت فيها القصور الفخمة وغرست فى أنحائها البساتين والحدائق الغنـــاء . وامتـــلأت بالميادين الفسيحة ، وازدحمت بالمساجد الفخمة المشيدة فى بناء ضخم وشكل هندسى جميـــل ، وقد زينت جـــدرانها بأروع الزخارف وأبدع النقوش .

وقد أخذت الدولة العباسية من مظاهر الأبهة والعظمة ما لم تعرفه دولة من قبل . فأصبح الخليفة فى الحفلات الرسمية يخرج

بأعظم مظاهر الملك والخلافة ، فى كوكبة من الحراس وفى زى نظامى . يتقدم الموكب فرقة من المشاة تحمل الأعلام ، ثم فرقة الموسيقى تصدح بحلو الأنغام . ثم يظهر خلفها جماعة الأمراء فوق جياد مطهمة مزدانة . وأخيرا يقبل الخليفة على جواد أبيض ، يتبعه كبار رجال الدولة ، ثم بقية الحرس فى نهاية الموكب .

وخطت الدولة خطوات واسعة فى الناحية العلمية فامتلأت بالمدارس ودور العلم واتسمت الدولة العباسية فى عرف المؤرخين جميعها بأنها مطلع شمس العلوم والفنون ، ومشرق نور العرفان . فقد كانت بحق دولة العلم والتأليف والابتكار والتدوين والنقل والترجمة . وكان من أثر ذلك أن نبغ فى كل علم وفن كثير من العلماء ، وصارت بغداد زهرة مدن الدنيا وكعبة طلاب العالم ، والمركز العلمى والأدبى الأول ، حتى لقد كان لزاماً على كل من تفوق فى علم أو فن اذا رغب فى الشهرة وذيوع الصيت أن يرحل الى بغداد وأن يتقرب بعلمه وفنه الى خلفائها وأمرائها . وكثرت فيها دور الكتب التى كانت أندية للعلماء والباحثين . وانتشرت المؤلفات ، ونشطت صناعة الكتابة والخط . وشيدت المراصد الفلكية والمصحات الضخمة . ونبغ عدد كبير فى علوم الطب وفن الصيدلة والرياضيات وغيرها .

وبلغت الدولة ذروة المجد والحضارة ، وكثر الخير واتسعت أبواب الرزق ، وتأنق القوم فى مظاهر الجمال وألوان البذخ . فقصور الخلفاء والأمراء وأمثالهم مترفة كل الترف . وقد روى

أن الخليفة المتوكل أنفق على قصره المعروف بالعروس فى مدينة « سر من رأى » ثلاثين مليونا من الدراهم ، وعلى قصرى الجعفرى عشرة ملايين ، وقصر الغريب عشرة ملايين ، وقصر الشيدان عشرة ملايين ، وقصر المليح خمسة ملايين ، وقصر بستان الايتاخية عشرة ملايين . وبذلك بلغ مجموع ما أنفقه على قصوره وحدها أربعة وتسعين ومائتى مليون من الدراهم .

أما عن ترف الوزراء فقد كان الوزير « ابن الفرات » يملك أموالا كثيرة تزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكان يستغل من ضياعه فى كل سنة مليونى دينار ينفقها جميعها . وكانت فى داره حجرة شراب يوجه الناس على اختلاف طبقاتهم اليها غلمانهم يأخذون الأشربة الفقّاع [1] والجلاّب [2] الى دورهم . وكان ابن الفرات لا يأكل الا بملاعق البلّور . وكما روى عنه ابن خلكان كان لا يأكل بالملعقة الا لقمة واحدة .

وكان راتب « أبى طاهر » وزير الدولة من الثلج كل يوم ألف رطل . وكان الوزير « المهلبى » كثير الشغف بالورد . روى من رآه قال : « شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتيع له فى ثلاثة أيام ورد بألف دينار ، فرش به مجالسه وطرحه فى بركة عظيمة كانت فى داره ولها فوارات عجيبة يطرح الورد فى مائها فتنفضه على المجلس فيقع على رءوس الجالسين » .

وبلغت الحالة الاجتماعية أرقى ما يتصوره انسان ، وتقدمت

---

(١) الفقاع : الشراب يتخذ من الشعير ، وسمى به لما يعلوه من الزبد .

(٢) الجلاب : بضم الجيم او فتحها ، العسل او السكر عقد بماء الورد (معرب) .

أسباب الحياة ومعيشة الرفاهية ، وارتفعت قيمة الاجتماعات ، وازدهرت الندوات ، وانتشرت مجالس الأدب والثقافة . وكان النساء يشتركن مع الرجال فى تلك المناظرات وهذه المجتمعات .

وكان الأرقاء من الأمم المغلوبة ـ نتيجة للفتوحات الاسلامية المتلاحقة وحروب التحرر المتتابعة ، لا يحصى عددهم كثرة من مختلف الجنسيات . وبلغ من وفرتهم أن كان امتلاك الرقيق فى متناول الناس جميعا . وقد كان لذلك أثر كبير فى الحياة الاجتماعية . وكان الرق يجمع بين شتات الأجناس والشعوب والديانات والثقافات . وعنى العباسيون عناية خاصة بتعليم الجوارى وتدريبهن فى مختلف الفنون والصناعات . فاذا كانت الجارية ذات صوت حسن ومنظر جذاب اتجهوا بها الى تعلم الموسيقى والغناء حتى تجمع الجارية فى الجمال بين حسن المنظر وحسن الشدو فى النغم . وكان ذلك سببا فى نشر الغناء على أوسع نطاق ، حتى ان المرء ليواجه هذه الظاهرة الفنية فى كل مكان ... فى الطرقات ، فى المحال العامة والندوات الخاصة ، فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ، فى بيوت الأغنياء ودور الفقراء. وشغف الناس جميعا بالغناء حتى بدا وكأنه ضرورة لكل انسان . وأقام النخاسون أصحاب هؤلاء الجوارى بيوتا [1] معدة للسماع فى الأحياء المختلفة . وكثرت هذه البيوت فى بغداد . وهذه المحال العامة للمغنيات والمغنين من الغلمان كانت

---

(1) كانت هذه البيوت تسمى « بيوت القيان » . والقينة فى اللغة الامة ، مغنية كانت أو غير مغنية ، ولكنها فى العرف لا تطلق الا على الأمة المغنية .

تلقى شدة اقبال الناس عليها للسماع ، لما يتوافر فيها من تهيئة جميع أسباب المتعة والأنس . ولم يتحرج من التردد عليها حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية . فابن فهم الصوفى كان كلفا بسماع مغنية اسمها « نهـاية » جارية ابن المغنى . وابن غيلان التاجر يسمع غناء « بلثور » جارية ابن اليزيدى . وأبو الحسن الجراحى القاضى يسمع غناء «شعلة» . وأبو سليمان المنطقى الفيلسوف الكبير وشيخ أبى حيان التوحيدى يسمع غناء صبى موصلى فتن الناس فى عصره ، وهكذا ...

والظاهر فى قولهم هذا ، ورواياتهم فى هذا الصدد أن محال الغناء كان منها المستهتر الذى يناسب المعربدين ، ومنها المتحفظ بعض الشيء الذى يناسب المتحفظين .

وما روى لنا يدل على أن الغناء فى هذا العصر كان غالبه بالشعر العربى السهل القريب المعنى ، السائغ اللفظ والوزن . فقد كانت « قنوة » تغنى :

يا ليتنى أحيـا بقربهم ... فاذا فقدتهم اقضى عمرى

و « سندس » تغنى :

مجلس صـبيّين عميدين ... ليسا من الحب بخلوين
قد صيّرا روحيهما واحداً ... واقتسـماه بين جسـمين
تنـازعا كأسـاً على لذة ... قد مزجاها بين دمعـين
الكأس لا تحسن الا اذا ... أدرتهـا بين محبـين

و « درّة » تغنى :

لست أنسى تلك الزيارة لما
طرقتنا وأقبلت تتثنى
طرقت « ظبية » الرصافة ليلا
فهى أحلى من جس عودا وغنى
كم ليال بتنا نلذ ونلهو
وتسقى شرابنا وتغنى
هجرتنا فما اليها سبيل
غير أنا نقول كانت وكنا

وهكذا كان الشعر الغنائى سهلا ، والمعانى قريبة يبدو معظمها حول العشق والغرام والهجر والوصال .

وهذا الشغف بالغناء كان من عوامل تنمية الأحاسيس الفنية والقدرة على الحكم للانتاج أو عليه بالجودة أو الضعف . كما استلزم بطبيعته تلقين الجوارى زيادة على فنون الغناء العزف بالآلات ومعرفة فنون الشعر والأدب والرواية والقصص والتندر ، ليتم الاستمتاع فى مجالس الطرب بكل هذه النواحى مجتمعة .

وقد وصل الغناء على أيدى الجوارى فى هذا العصر الى أبعد غاية من التقدم والسمو . وبلغ من عناية الخلفاء بهن أن قيل ان الرشيد — وهو أول خليفة غنى زرياب بين يديه — اتخذ ألفى جارية فى قصره ، لكل صنف منهن صنعة وفن وميزة فى الأدب والموسيقى والطرب . والحق أن مجالس الغناء فى هذا العصر كانت تعد من عجائب الفن .

وبلغ القوم من الأناقة فى المعيشة أن سنّوا للظرف والظرفاء قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف . وصنفوا فى ذلك الكتب والمؤلفات ، نذكر منها على سبيل المثال :

١ ـــ الموشى ، أو الظرف والظرفاء	للوشـــاء
٢ ـــ حدود الظرف	«
٣ ـــ ما يقدم من الأطعمة وما يؤخر	للرازى
٤ ـــ ترتيب أكل الفواكه	«
٥ ـــ آداب الحمّام	«
٦ ـــ الهدايا والسنّة فيها	لابراهيم الحربى
٧ ـــ الزينة	لحنين بن اسحاق
٨ ـــ النبيذ وشربه فى الولائم	لقســطا بن لوقا
٩ ـــ الايقاع والمؤانسة	لأبى حيان التوحيدى

ونسوق مثلا من هذه المصنفات ما ورد فى كتاب الموشى من أدب اللياقة :

« اعلم أن من كمال أدب الأدباء وحسن تظرف الظرفاء ، صبرهم على ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم . فهم لا يداخلون أحدا فى حديثه ، ولا يتطلعون على قارىء فى كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مسرّ سرّه ، ولا يسألون على ما ورى عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه الخ ... » .

ووضعوا قوانين الظرف فى الزى ، وفى أنواع الحلى ، وفى التعطر ، وفى الشراب والموائد ، وما هو ظرف فى الرجال دون

النساء ، وما هو ظرف فى النساء دون الرجال وهكذا ...

وقد كان من أثر الطابع العلمى الذى طبع عليه هذا العصر أن تعرض العلم لهؤلاء الجوارى يؤلف فيهن الكتب والمصنفات، فذكروا مختلف أجناس الشعوب والرقيق من كل جنس ، وما يتميزن به ، وما يعاب عليهن ، والأعضاء وأوصاف الحسن فيها وأوصاف عيوبها . كما فلسفوا الكلام فى الحسن ، ووضعوا قواعد للجمال . وأوجدوا ما يسمى « جهابذة النقد » ، وتكلموا فى الألوان وحسنها . وأفاضوا فى ذكر محاسن كل عضو وعيوبه ، من الشعر والجبين والحواجب والعيون والأنوف والخدود والشفاه والثغور والأعناق والمعاصم والأعضاء والأنامل وتطريفها بالحمرة والسواد والنحور والصدور والثدى ، واختلاف الأذواق فى كبرها أو صغرها ، والخصور والأقدام . ومزجوا ما قيل فى كل ذلك من التعبير الدقيق فى اللغة بما قيل من عيون الأدب بما قاله جهابذة النقد .

كما تفننوا فى ذكر دقة الفروق بين المغنيات وفلسفة الغناء . فقالوا ان « علوة » أحسن ما تكون اذا رفعت عقيرتها . و « نهاية » اذا اندفعت فى شدوها . و « بلّور » اذا رجّعت . و « قلم » اذا تناوأت [1] فى استهلالها وتضاجرت على ضجرتها وتذكرت شجوها الذى قد أضناها وأنضاها . و « سندس » اذا تشاجت وتدلّلت وتفتلت وتقتلت وتكسّرت .

---

(1) لفاخرت .

وتفلسفوا فأخذوا يناقشون فى تلك المصنفات هل الغناء لذة الحس أو لذة العقل ؟ ولِم يكون الغناء ألذ وأطيب اذا سند المغنى آخر ؟ الخ ...

ووضعوا الكتب حتى فى عود السواك ، وتنظيف الأسنان ، والمستظرف من الخواتم والفصوص . ثم تفننوا فيما يكتب على تلك الفصوص وما ينقشه أهل الهوى على خواتيمهم وما يكتب على ذيول الأقمصة والأردية والأكمام .

فذكروا أنه كان لعريب ، جارية بعض الهاشميين ، ثوب مطرز بالذهب ، مكتوب فى وشاحه :

وانى لأهــواه مســيئا ومحســنا
وأقضى على قلبى له بالذى يقضى
فحتى متى روح الرضى لا ينالنى
وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

وعلى طراز كمه :

اذا صد من أهوى وأسلمنى الكرى
ففــرقة من أهوى أحــر من الجمــر

ورؤى مكتوبا على صدر قميص جارية بالفضة والذهب سطرا سطرا :

يا فتى قــلت اذ دعــانى هــواه
مستجيبــا لصــوته لبيــكا
ما بكت مقــلتى لفقــدك الا
جــزعا أن أموت شــوقا اليكا

وكتبت بنان جارية الخيزران على ترائين درّاعة [1] لها بذهب :

لم تقل قولا ولكن حلفت
أنها أحسن عين أطرقت
زعمت أني قد لاحظتها
أيُّ عين لحظت فاعترفت
أظهرت حجّة من يعشقها
واستباحت غفلةً وانصرفت

وعلى طراز كمها :

ليس بى صبر ولا بى جلد
قد نفى حبك عنى جلدى

ووجد مكتوبا على وشاح قميص جارية :

أحسن ما خلق الله وما لم يخلقه
شكوى فتاة وفتى يعشقها وتعشقه
نار الهوى دانية تحرقها وتحرقه
يا حبذا الحب اذا دام ودامت حرقه

وكتبت جارية الأحدب على وشاح قميصها :

اذا وجدت لهيب الشوق فى كبدى
أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
هبنى طفئت ببرد الماء ظاهرهُ
فمن لحرٍّ على الأحشاء يتقد

---

(1) ثوب واسع يلبس فوق الثياب مشقوق من الأمام .

وكتبت جارية أبي حرب على رداء لها ممسّك :

من ألف الحب بكى　　من شفّه الشوق شكا
من غاب عنه الفه　　أو صدّ عنه هلكا
يا مالكا عذبتني　　بجوره اذ ملكا
رفقا بمملوكك ما　　يحلّ ذا الظلم لكا

وكتبت أخرى على قلنسوتها أيضا :

الحب يعرف فى وجوه ذوى الهوى
باللحظ قبل تصافح الأجفان

ووجد على قلنسوة « شمائل » الجارية :

ليلى بوجهك مشرق　　وظلامه فى الليل سارى
فالناس فى سدف[1] الظلا　　م ونحن فى ضوء النهار

ورؤى على عصابة جارية مكتوبا بالذهب :

ما كنت الاّ حلما　　رأته عينى فى الوسن[2]
يا سمح الفعل ويا　　أحسن من كل حسن

كما تفنّنوا فيما يكتب على الوسائد والستور والبسط والمقاعد والأبواب والقباب والأقلام والمقاصير . كما يكتبون بالحناء والمسك على أيدى الجوارى وعلى أقدامهن . وينقشون على الأقداح والراح والقنانى والكاسات .

---

(١) السدف : الظلمة .
(٢) الوسن : النعاس .

كتب عبيد الماجن على كأسه :

اشرب هنيئـــا لا تخـــف طائفـــا

قد آمن الطـــوّاف [1] أهل الطرب

وعلى كأس أحد الأدباء :

اذا لم يمــزج النـــدمان [2] كأسى

جعلت مزاجهـــا مـــاء الجفـــون

وعلى كأس كاتب آخر :

اشرب هنيئـــا فى أتمّ النعـــيم

طاب لك العيش بطيب النـــديم

كما كان ينقش على الأوانى بالذهب والفضة .

وتفنّن الموسيقيون فى النقش على آلات الطرب . فقــد أهدى بعض الأدباء الى قينة كان يهواها عوداً كتب عليه :

من ذا يبلّغ « نخلة » عن عبـــدها

أنى اليـــك وان بَعُـــدتِ قريب

تستنطقين بحسن صـــوتك أعجما

يدعـــو بذاك صـــوابه فيجيـــب

ووجد مكتوبا على طنبور جارية :

يا أول الحســـن يا من لا نظـــير له

هلّت سحائب عينى نغمـــة الزير [3]

---

(١) الطائف : الذى يحرس الناس ليلا ويكشف أهل الريبة منهم .

(٢) الندمان : المنادم على الشراب .

(٣) الزير : أكثر أوتار العود حدة .

وأيُّ مزنة[1] عزب[2] لا تسحُّ دما
من عاشق عند نغمات الطنابير

وعلى طنبور آخر :

بكيت من طرب عند السماع كما
يبكى أخو قصص من حسن تذكير
وصاحب العشق يبكى عند شجوته
اذا تجاوب صوت البم[3] والزير

ولئن اغتبط الفنانون والشعراء والأدباء بما أنتجته تلك الحياة الاجتماعية من فن بديع ، وشعر رقيق ، وذوق رفيع ، فان رجال الدين ، وخصوصا المتزمتين منهم ، وأصحاب التصوف ، والزهاد فى الحياة ، ساءهم ما نجم عن ذلك من لهو خليع واستهتار بلغ فى بعض الأحايين درجة التبذل والفجور .

فقد كانت بغداد لنفس هذا التطرف والاسراف فى أنواع الملاهى وألوانها بقدر ما هى محببة لأهل الترف واللهو كانت بغيضة الى أهل الورع والزهاد . وهكذا كانت بغداد كما قيل فى وصفها :

« مسجد وحانة ، وقارىء وزامر ، ومتهجد يرتقب الفجر

---

(1) المزنة : المطرة .
(2) العزب : عرق فى العين تجرى منه الدمع .
(3) البم : الغلظ اوتار العود .

ومصطبح فى الحدائق ، وساهر فى تهجد وساهر فى طرب ، وتخمة من غنى ومسكنة من املاق ، وشك فى دين وايمان فى يقين » .

***

ولم يكن زرياب وقتئذ بعيداً عن قصور الخلفاء ، وهى حينئذ قصور أولئك الذين انبعثت فى رحابهم أضواء العلوم والعرفان ، واحتشدت فيها ألوان الفنون والآداب . وهى فوق ذلك حافلة بالممتع الرائع من مظاهر الأبهة وروائع العظمة والجلال . فلا غرو أن يكتسب هذا الصبى الناشىء فى ظل مثل هذه الحياة السامقة جميع أسباب الرفاهية والنعمة والتظرف ، ويستسيغ الثقافة فى جميع ألوانها ، ويستجمع المعرفة من جميع أطرافها .

وقد عرضنا هذه الصور والأوصاف لهذه البيئة فى بغداد ، وهذه المعيشة ذات الألوان الرفيعة المسرفة فى البذخ والمتطرفة فى النعيم ، لأننا سنلتقى بها ، بل وبأروع منها فيما يلى من حياة زرياب حين يحل هذا العبقرى الفذ بشمال افريقية ، ويستقر بعدها فى أرض الجزيرة الخضراء بالأندلس ، فيكون هذا الناقل الأمين لكل هذه الأوصاف والصور ، مبدعا لها ومبتكراً فيها .

فاذا أضفنا الى كل هذه المؤثرات التى شكلت صبا زرياب

وشبابه فى بغداد أنه تلميذ ابرهيم الموصلى وابنه اسحاق من بعــده ، الى جانب أندادهما المعاصرين من أعــلام الموسيقى والغناء ، لا نجد غرابة ولا دهشة فى أن ينفرد زرياب فى فنه بكل جديد يكوّن منه شخصية بارزة متفردة على مدى العصور الذهبية وتتابع الأجيال فى بغداد والأندلس .

الفصل الثاني

مدارسه

- معلماه ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق .
- معاصروه من اعلام الموسيقى والغناء .
- انعكاس حالة بغداد العلمية والاجتماعية .

مدارســـه

لقد تناول زرياب الثقافة من علوم وفنون ، نظرية وعملية ، واحاطة عامة بتجارب الحياة ، وأعمالها وتحصيلها ، من ثلاثة ينابيع صافية عذبة . واستمد معرفته من تلك المصادر الثلاثة التى قلما اجتمعت كلها لانسان واحد ، أو توافرت جميعها لأحد من الأفذاذ ، على مستوى رفيع مستكمل كما تمت له .

وتلك المصادر الثلاثة هى :

ـــ معلماه ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق .

ـــ معاصروه من أعلام الموسيقى والغناء .

ـــ انعكاس حياة بغداد العلمية والاجتماعية .

واليك تفصيلها :

***

ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق :

مما لا شك فيه أن المعلم انما يعتبر المنهل الأول الذى يستمد منه التلميذ أصول العلم وموارد العرفان ، كما يعتبر التلميذ المرآة التى تنعكس عليها علوم المعلم وثقافته .

وقد اتفق المؤرخون على أن المعـلم الأول لزرياب كان ابراهيم الموصلى . فلما تقدمت به السن ، وغلب عليه المرض ،

تولى ابنه اسحاق استكمال هذه الرسالة ، وواصل أمر تثقيف زرياب من بعده .

فماذا يمكن أن يكون زرياب قد أفاد من هذين الأستاذين الخطيرين ، وهما أعظم من أنجبت دولة بنى العباس فى دنيا الموسيقى والغناء ؟

لقد قام ابراهيم الموصلى بمنادمة موسى وهارون ابنى المهدى فى حياة أبيهما ، وتولى القيام على تنشئتهما ورعايتهما ، وامدادهما بمقتضيات المجالس والمنادمات وما يتصل بها . فلما مات المهدى أشرقت شمس السعادة على ابراهيم ، وضحكت له الدنيا ، فنثر عليه الخليفة الهادى من النعم ما يغرق فى لجته . وحسبه فى ذلك أن يجيزه فى يوم واحد بمائة وخمسين ألف دينار .

وكان ابراهيم الموصلى الأنيس المقرب والجليس المحبوب لدى الهادى والرشيد من بعده . كما ورث ابنه اسحاق هذه المنزلة المرموقة مدى حياته عند الخلفاء ابتداء من هارون الرشيد .

وقد ألمعنا الى أن زرياب كان مولى للخليفة المهدى ، أعتقه وما يزال صبيا . وهو وان أصبح حرا ، طليقا من ربقة العبودية ، فقد ظل دائم الاتصال بالبلاط مرتبطا بقصر الخلافة من قريب أو من بعيد ، بصفة أو بأخرى .

واذن فقد كان زرياب الناشىء يسير فى ركاب معلميه

ابراهيم واسحاق ويمشى فى ضوء معارفهما . سواء أكان ذلك داخل قصور الخلفاء والأمراء أم خارجها .

لقد كان ابراهيم الموصلى هو الموسيقار الأول فى بغداد ، والفنان المتفــرد فى زمانه ، فلا ريب أن زرياب وهو صاحب الموهبة الموسيقية الفذة والعبقرية النادرة ، قد أفاد من أستاذه فى هــذه الناحية أكبر افادة ، فأتقن الموسيقى تأليفا وعزفا وغناء .

وكان الناس قبل ابراهيم الموصلى يعلمون جواريهم الغناء على قدر لياقتهن واســتعدادهن ، وكان ذلك مقصــوراً على الجوارى السود وأشباههن . فرفع ابراهيم مكانة هذه المدرسة وكان أول من علم حسان القيان البيض هذا الفن ، وعمل على استكمال ثقافتهن فى جميع النواحى التى تتطلبها مجالس المنادمة من أدب ورواية وقصص وتندر . فاجتمع لهن الجمال من أطرافه جميعا : حسن المنظر ، ورائع الشدو ، وحلو الحديث . وبذلك أعلى من قيمة القيان بقدر ما أعلى من مكانة الموسيقى والغناء . وكانت هذه التجارة تدر عليه المال الوفير والثراء العريض . فقد كان يشترى الجارية ببضع مئات من الدنانير ، فاذا استوفت ثقافتها ، باعها بعشرات الآلاف ، حتى بلغ ثمن احداهن مائة ألف دينار . ولذلك قدرت ثروته بالملايين . وقد أحصاها ابنه اسحاق بأربعة وعشرين مليون درهم حازها من هبات الخلفاء والأمراء والوزراء ومن ثمن القيان وأجور تعليم الجوارى .

ولم يكن زرياب بعيداً عن معلمه فى هذا الاتجاه . هبه

تلميذاً أو مساعداً فهو على كل حال قد أفاد من ذلك كله علما وادارة وخبرة . وقد لمس بنفسه ما لتعليم الجوارى وتثقيفهن من أثر بعيد فى ترقية الذوق العام ، والشعور القوى بالجمال ، وتنمية الرغبة فى طلب المزيد من فنون الغناء والشعر والرقص والطرائف .

وقد رأى زرياب كيف يدرس أستاذه هؤلاء الجوارى فى مجال التظرف ويعلمهن كتابة الأشعار الرقيقة تطريزاً على الملابس أو تدوينا على الآلات الموسيقية فى اطار شامل من الابداع ، ويمتد بذلك معهن الى مرافق الحياة وألوانها ، حتى يبلغ تنسيق الموائد وألوان الطعام .

وكذلك رأى زرياب كيف افتتح أستاذه أول مدرسة ضمت ثمانين جارية بعث بهن اليه جماعات الأثرياء أو الأصدقاء ليتولى تثقيفهن وتدريبهن ، ثم اعادتهن الى مواليهن بعد أن يتقاضى أجور هذا التعليم .

وتنطبع هذه الصور فى ذاكرة زرياب فيحفظها ويحتفظ بها ، الى مستقبل قريب ، وان كان فى بلد ناء بعيد .

وكان ابراهيم الموصلى عليما بجميع أنواع الغناء وألوانه ، لا يسأله الخلفاء أو غيرهم شيئا منه الا وجدوه . كما كان متفرداً فى أصول صوغ الألحان ، يبتكر الرائع منها ، ويبدع فيها بما لم يسبقه اليه غيره .

ولا نشك فى أن زرياب بلغتــه اجابة أســتاذه حين سأله الخليفة : كيف تصوغ الألحان ؟ فأجاب :

« يا أمير المؤمنين : أخرج الهم من فكرى ، وأمثل الطرب بين عينى فتتفتح لى مسالك الألحان ، فأسلكها بدليـــل الايقاع ، فأرجع ظافراً بما أريد » .

وأذن فلم يجهل زرياب ذلك المفتاح الذى يفتح به نفس الطريق الى الصياغة وابداع التلحين .

***

ويواصل زرياب الفتى الاستزادة من هذه الثقافة بعد مرض ابراهيم وتقدمه فى السن ، فتقوى علاقته بابنه اسحاق ليتم ما بدأه أستاذه الأول فى شكل أعم وأكمل .

ونحن نعلم ما كان يتصف به اسحاق من رقة الحاشية ، وحلو الحديث وجم الظرف ، وكامل الثقافات المتنوعة بما أهله أن ينزل من مجالس الخلفــاء منزلة النــديم المحبب والجليس الأنيس .

لقد كانت لاسحاق قدم ثابتة فى سائر العلوم والآداب حتى ليعجز الوصف عن تحديد مكانته من النبوغ فيها . فقد كان عالماً فقيها ، وشاعراً مجيداً ، وأديبا أريبا ، ونديما جم الظرف حلو الشمائل ، وجليسا لطيف المعــاشرة رقيق الحاشية لا يستغنى عنه الخلفاء ، وراوية يروى أخبار القدامى والمحدثين بل وكثيرا ما كان يصحح خطأ من ينسب الأشياء الى غير قائلها . وكان مغنيا عارفا بفن الغناء تمــام المعرفة ، وعازفا ماهراً ، وملحنا بارعا .

وهكذا كانت ثقافات اسحاق لا تقف عند وسيلة ولا تقنع بغاية . فلم يقتصر فيها على فن ، فمع تفرده بالمكانة الأولى فى الموسيقى والغناء ، فان احترافه لهذا الفن لم يحل بينه وبين تحصيله مختلف العلوم والفنون . ولم ينته أمر هذا التحصيل الى ما له صـــلة مباشرة بالغناء والموســيقى كالشعر والأدب والقصص ، بل تعداه الى كل ألوان الثقافة .

فلم يكن عجبا أن نرى فيما بعد تلميذه زرياب صورة من أستاذه ، ملما بألوان جميع هذه الثقافات ، متبحراً فى كل فرع من فروع المعرفة . فكان كاسحاق أسوة فى غنائه ، وقدوة فى علمه وثقافته .

ولم يكن اسحاق مغنيا وفق ما تلهم الصدفة ويوحى به الارتجال ويوجه اليه الصوت الحسن ، ولكنه تناول فن الغناء المرتكز على أسس فنية . فوضع القواعد والأصول وضبط الأوزان ، وأحكم الأجناس والمقـــامات ، وتصرف بها تصرفا يشهد بالدقة والعمق وحسن التنسيق . فأصبح الغناء فى عصره يعتمد على الأصول المحكمة والقواعد المدعمة . حتى التدوين الموسيقى للألحان لم يغفل أمره ، بل وضع مبادئه حتى كان فى قدرته أن يتبادل ألحان الأغانى مع ابراهيم بن المهدى عن طريق مجرد كتابة نصوص الشعر ووصف اللحن ، واذ ذاك يكون فى الامكان غناؤه تلقائيا قبل سماعه .

كل هذا وأكثر منه وعاه زرياب ، وسنراه بعد ذلك حين يمارسه ينقله الى أبعد مدى بعد ما يتم له الرحيل من بغداد .

وكان اسحاق من أمهر العازفين بالعود ، حتى لقد عزف في حضرة الخليفة الواثق بالله على عود فاسد التسوية ، اذ الملوك لا تصلح في مجالسها العيدان فلم يزل يضرب بذلك العود الفاسد التسوية حتى قال الواثق : « لا والله ما رأيت مثلك ولا سمعت به » .

والى نفس تلك الدرجة التي ارتقى اليها اسحاق في العزف بلغ زرياب فكانت مكانته لا تسامى في مثل ما وصل اليه أستاذه من تفوق .

***

معاصروه من أعلام الموسيقى والغناء :

ولم يكن زرياب في نشأته وثقافاته بمعزل عن سائر معاصريه من أعلام الموسيقى والغناء ممن امتلأت بهم مجالس بغداد . فلم يقتصر في دراساته وتعلمه على ما كان يفيد من أستاذيه ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ، بل كان كالنحلة التي لا تترك زهرة استهوتها حتى تنجذب اليها ، ناهلة من رحيقها ، متنقلة بين رياضها .

وبينما كان ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق من أنصار القديم شعراً وموسيقى ومن المتعصبين لأسلوب المدرسة القديمة فيهما ، يبذلان غاية الجهد في الدفاع عن مذهبهما هذا في مجالس الخلفاء وخارجها من المجالس العامة ، ولهما في هـذا الاتجاه أنصار وأتباع ، كان يعارض تلك المدرسة مذهب المجددين وعماده

ابراهيم بن المهدى أخو الرشيد ، ويعد فى الطليعة الأولى من أعلام الغناء فى العصر العباسى الذهبى ، يجيد العزف بالآلات الوترية والمزامير والدفوف ، فكان من أحذق الناس بفنون الموسيقى علما وأداء ، وأطبعهم فى الغناء ، وأحسنهم صوتا . ولم يستكن ابراهيم للفن القديم ولم يشأ أن يحتذى فى صنعته الأساليب الغنـــائية الموروثة ، بل كان من رأيه — وقد وجد العصر العباسى جديداً فى كل شيء يتعلق بحضارته ودراساته من علوم وفنون ، ألا يقف دولاب الغناء فى هذه الدولة التقدمية المتطورة عندالخطوط الأولى التىكان يترسمها المغنون فىالجاهلية وصدر الاسلام وعصر بنى أمية وبداية عصر العباسيين . فتزعم فى الموسيقى والغنـــاء مذهب التجديد ، وقام بثورة فنية غير هياب ولا مرتاب . وكان يمقت فى الفن التقليد ، كما كان يكره فيه التكلف والتعقيد . انما يدين بأخذ الفن من أيسر مناهله وأقربها الى النفس ، فكان يحذف نغم الأغانى الكثيرة العمل حذفا ويخففها ليسهل أداؤها . ثم اندفع فى التجديد فقام بخطوة أخرى هى مزج الألحان العربية بألحان فارسية ليخرج منها لونا جديداً . فان عيب عليه ذلك قال : « أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وأعمل على ما ألتذ » . وكان يقول انه يجندر صنعة الألحان ، أى يصقلها ويحسنها ، وانه يغنى تطربا لا تكسبا ، وانه يغنى لنفسه لا للناس .

ويتبع هذا المذهب كثيرون من الأنصار والمؤيدين ، كان فى مقدمتهم مخارق ويحيى المكى ، وابن جامع وغيرهم من أعلام

مغنى الدولة العباسية ، بل لقد وجد هذا المذهب قبولا من الكثيرين لجدته ويسر تناوله على الناس وبعده عن التكلف والتعقيد الفنى فضلا عن مسايرته لطبيعة الحياة فى تطورها وعدم الجمود بقافلتها التى ينبغى ألا تتوقف عن المسير .

فهل كان زرياب بعيداً عن هذه المدرسة ؟

كلا ، ان زرياب الطموح المجدد لم يكن بعيداً عن هذا التطور ، ولم يكن له بد من أن يلم بالمدرسة القديمة التى ينبغى أن تكون مصدر تعليمه الأول اذ لا جديد الا بعد حفظ القديم والالمام بالتراث الأول . وقد أخذ زرياب بأسباب تلك المعرفة من أستاذيه ابراهيم الموصلى واسحاق . فلما استوى على مكانه ورسخت قدمه أمكنه أن يجارى النهضة الجديدة . وسنرى فيما بعد أنه سيكون من أكثر دعائمها وناشرى مبادئها فى داخل بلاد العرب وخارجها .

وهناك ناحية أخرى كان لها أثر هام فى حياة زرياب ونشأته الفنية ، وهى ليست بعيدة أيضا عن ميدان التطور والتجديد . تلك هى وجود « منصور زلزل » وقد ظهر فى نهاية القرن الثامن الميلادى . وكان أشهر من ضرب بالعود فى الدولة العباسية . وقد عاصر ابراهيم الموصلى ، وتمتع بمكانة فنية قلما أتيحت لغيره وبقى اسمه خالداً على الزمن . وحسبه أن يكون أستاذ اسحاق الموصلى فقد ظل يتردد عليه يوميا حتى مهر مثله فى العزف بالعود وتفوق على سائر معاصريه .

وقد قام زلزل بضبط مواقع النغم على دساتين العود . (والدستان موضع عفق الأصبع على الوتر). واستحدث فى ذلك مواضع جديدة نسبت اليه ، فخلدت اسمه ، حيث سميت احدى تلك النغمات « وسطى زلزل » ، وابتكر فى المقامات العربية مقاما جديداً نسب اليه وما يزال ذائع الاستعمال فى بلاد العراق وهو مقام « المنصورى » نسبة الى اسمه منصور زلزل .

ولم يقف مجهود زلزل على تحقيق نغمات السلم الموسيقى العربى والدقة البارعة فى أدائها ، بل امتدت بحوثه الى تحسين صناعة العود وابتكار نوع جديد فيه ، فكان أول من أحدث العيدان « الشبابيط » التى وصفها اسحاق الموصلى فقال انها كانت عجبا من العجب . وسميت بالشبابيط نسبة — فى شكلها — الى نوع من السمك دقيق الذنب ، عريض الوسط ، لين الملمس ، صغير الرأس .

ولم يبز زلزل هذا فى تحسين آلة العود وابتكار الكثير من نواحى التجديد فيها غير زرياب . ولا شك فى أن زرياب الصغير قد أفاد كثيراً من زلزل ومن عبقرية زلزل .

وهذا الانبعاث الذى نهض به زلزل فى التجديد والابتكار وضبط دساتين العود ومواضع عفق نغمات السلم الموسيقى العربى ، كان يمكن أن يتوقف مسيره لو لم يقيض الله له عبقرية زرياب لتحمل هذه الرسالة ، وتنميها وتطورها ، حتى يقترن

باسمه تحسين صناعة العود والتجديد فيه بما أوضحنا بعضه فيما سبق ، وسنستكمله فيما يلي من الكتاب .

* * *

انعكاس حالة بغداد العلمية والاجتماعية :

وكما انعكست هذه الصور الموسيقية المختلفة على لوحة قلب هذا الفتى العبقرى ، كذلك تلقت نفسه تلك الصور الزاهية التى كان يراها حين يصبح ويمسى فيجد أمامه بغداد حاضرة الدنيا وزهرة المشرق بما امتلأت به من أسباب المدنية الزاهرة . فما كادت تتقدم به السن حتى أحس أن مدينته التى احتوت قرابة مليونين من السكان هى أكبر مركز لمختلف الثقافات ، وقد أحرز خلفاؤها السيادة على العالم الاسلامى شرقا وغربا ؛ ونشروا حضارتهم فى جميع الآفاق وسائر الأرجاء . ووجد أن مدينة بغـــداد قد أصبحت مطلع شمس العلوم ومشرق نور العرفان بفضل ما ازدهر فيها من علوم وفنون وما ترجم بها من الكتب اليونانية والفارسية والهندية ، وما نقل الى لغتها من سائر علوم الأمم المختلفة ... وجدها وقد أصبحت مركز البعوث العلمية الى القسطنطينية والاسكندرية وغيرها .

وفق هذا وذاك وجد الترف الطاغى والثراء العريض والنعمة الوارفة والاسراف الذى كانت تعيش فيـــه طبقة المترفين كما رأى أمامه حرمان رجال الدين وشـــيوخ التصوف والتزهد وطوائف العباد .

هذه صور بغداد ، متعة الأنظار ، وبهجة القصاد والزوار ، ومنتدى عشاق اللهو ... والبغيضة الى أهل الورع من حفاظ الحديث والفقه والساهرين بين التهجد والتلاوة والذكر .

صور تتلألأ أمامه فى بغداد عند تلك المجالس المزدحمة بالجوارى والقيان فى أكبر مظاهر الحسن والتظرف ..

لقد انطبعت صور هذا الجو المليء بطرائف الجمال من دراسات التراث العربى والدينى .

تلك التيارات القوية المتناقضة ، فى صور متلاحقة متنوعة متضاربة انطبعت جميعها على صفحات قلب هذا الفتى الناشيء ..

ولكن عبقريته الوثابة ، وروحه الطموح ، واستعداده القوى للنبوغ الذى لا يعرف حدوداً ولا يعترف بالحواجز والعقبات ... كل ذلك ضمن لكفايته القدرة على اختزان جميع هذه المعانى فى عقله الباطن لتخرجها فيما بعد فى صور أروع وأجمل .

الفصل الثالث

فى حضرة الرشيد

- فى حضرة الرشـــيد ...
- حقد تنزه عنه الفنان ...
- اعتزام الرحيـــل ...

فى حضرة الرشيد

تحدثنا عما كان ينعم به خلفاء بنى العباس فى قصورهم من الترف والرفاهية وما كان يتوافر فى مجالسهم من بدائع الفن وتبادل الطرائف . من النــوادر والقصص والرواية ومأثور الشعر ومروى الأدب . ولا شك فى أن مجلس الرشيد كان هو القمة التى يطمح الى بلوغها كل نابه متفوق يرى نفسه متفردا فى علمه وفنه . فقد اجتمع فى بلاطه من عباقرة الموسيقيين وأعلام الغناء ما لم يجتمع لخليفة قبله أو بعده ، وبحسبه أن يضم مجلسه من هؤلاء أمثال ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق ويحيى المكى وابن جامع وزلزل ومخارق ومن المغنيات أمثــال بذل ومتيم الهاشمية ودنانير وشارية ثم أخت الرشيد علية بنت المهدى وأخوها ابراهيم .

وقد كانت الأقــدار رحيمة حين هيــأت لزرياب الموسيقار الشاب طريق الوصول الى هذه القمة الرفيعة من بلاط الرشيد . وهو الذى نشأ تلميذا لابراهيم الموصلى ثم لابنه اسحاق من بعده فحفظ عنهما أســاليب الغناء وأسرار التلحين . وأصبح صنو أستاذه اسحاق عالما فقيها ، وشاعرا مجيدا ، وأديبا أريبا ، ونديما جم الظرف حلو الشمائل ، وجليسا لطيف المعاشرة رقيق الحاشية ، وراوية يروى أخبار القدامى والمحدثين .

واذا كانت المراجع التاريخية لم تكلف نفسها الجهـد فى تحديد سن زرياب ولا تسجيل الوقت الذى وطئت فيه قدم هذا الفنان بساط الرشيد ، فقد استطعنا أن نصل الى ما يقرب لنا هذا التحديد عن طريق المقارنات والموازنات التاريخية التى تمكننا أن نستجمعها من أطوار حياته وأسفاره ورحلاته ، بحيث يمكننا القول ان ذهابه الى الرشيد كان فيما بين عامى ١٨٥ هـ — ١٩٠ هـ (٨٠١ م — ٨٠٦ م) وان زرياب كان يومئذ فيما بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره .

ونبحث عن زرياب فى نشأته وفى طفولته ، وننقب عن حوادث وظروف هذه النشأة كيف كانت على وجه واضح يشبع نهم البحث فلا نلتقى به الا فى أوج نضجه فى مجلس الرشيد مع أستاذه اسحاق الذى كان فى غفلة من أمره وأمر تلميذه ، حين سأله الخليفة يوماً أن يحضر اليه مغنيا جديدا حسن الصنعة على سبيل التنويع والتغيير ، فاندفع اسحاق فى ذكر زرياب والثناء عليه ، وامتدح مقدرته ونبوغه . فاستدعاه الرشيد اليه ، وراح يستفسره ويمتحنه . فوجد فيه فصاحة المنطق وحضور البادرة وسرعة الاجابة فى غير تردد ولا تهيب . وسأله عن شأنه فى الغناء فقال : « أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه مما لا يحسنونه ولا يحسن الا عندك ولا يدخر الا لك ، فان أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك » . فاستدعى له الرشيد بعود اسحاق . فأبى زرياب وقال : « لى عود نحته بيدى ، وأرهفته باحكامى ، .. ولا أرتضى غيره » . فأمر الرشيد باحضار ذلك

العود فوجده لا يختلف فى منظره عن عود اسحاق . فقال له : « ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ » . فأجاب زرياب : « ان كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وان كان يرغب فى غنائى فلا بد لى من عودى » . فقال الرشيد : « ما أراهما الا واحدا » . فأجاب زرياب : « صدقت يا مولاى ، ولا يؤدى النظر غير ذلك . ولكن عودى وان كان فى قدر حجم عوده ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغسل بماء سخن يكسبها أنوثة ورخاوة ، وبمها ومثلثها [1] اتخذتهما من مصران شبل فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب ما ليس لغيرها »

فأعجب الرشيد ببراعة وصفه ، وأمره بالغناء ، فاندفع يغنى :

يا أيها الملك الميمون طائره
هارون راح اليك الناس وابتكروا

فقال الرشيد لاسحاق بعد أن استولى عليه الطرب وتمكن منه الاعجاب : « لولا أننى أعلم من صدقك على كتمانه اياك لما عنده وتصديقى لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك اعلامى بشأنه ، فخذه اليك واعتن به حتى أفرغ له فان لى فيه نظرا » .

---

(1) البم والمثلث : وتران من أوتار العود .

ويتضح لنا من هذه القصة ما امتاز به زرياب من لباقة وحسن اجابة . فقد صدق الخليفة فى حكمه أن كلا العودين لا يختلف أحدهما عن الآخر ، وأقام الدليل على صدقه بأن العين لا ترى فرقا بينهما اذ أنهما فى حجم واحد ومن جنس خشب واحد . ثم يكشف بعد ذلك فى أدب جم عن الأوصاف التى يمتاز بها عوده فى خفة وزنه ومغايرة أوتاره . وقبل ذلك يجيب زرياب الخليفة فى تلطف جميل بقوله : « ما لم تسمعه أذن قبلك » . وكان يستطيع أن يقول « ما لم تسمعه أذناك قبل اليوم » . ولو قد سلك فى خطابه هذه المجابهة لأضاع على نفسه رضا الخليفة عنه واعجابه بنبوغه . ولكن زرياب الشاب عرف كيف يختار التعبير اللائق ، كما عرف كيف يقدم من فنه ألوانا لم يعرفها أستاذه من قبل .

* * *

ومع هذا فاننا لا نعفى زرياب من الملامة والعتب . فقد تسبب فى اثارة أستاذه بانطوائه على نفسه وكتمانه ثمار عبقريته ، مما تسبب عنه حقد أستاذه عليه . ولعل زرياب كان يخشى أن يتنكر اسحاق لهذا الذى استحدثه ، سيما وأنه لم يغب عنه علم تلك المعارك الجدلية التى لم تكن تهدأ أو تتوقف لحظة بين القديم من مذهب أستاذه والجديد من مذهب معارضه ابراهيم ابن المهدى . ولكن هذا كله غير كاف فى الاعتذار له .

وكان جديراً به أن يبرهن على أنه الفنان البار والتلميذ

الوفى لأستاذه اسحاق ولأبيه ابراهيم من قبل . فلولاهما ما كان في مقدوره وهو الحدث المحتاج الى العون أن يتخطى كل تلك الدرجات وأن يبلغ هـذا الشـأو . ولولا اسحاق ما كان في استطاعته أن يحظى بالمثول أمام الخليفة . وكان عليه حين أكرمه أستاذه وشرّفه بهذه المكانة أن يطلعه على ما وصل اليه من ابداع وابتكار وما يعتزم عرضه واظهاره في حضرة الرشيد .

وعلى فرض أنه اذا لم يبلغ فى ذلك قبول أستاذه ، فلم يكن يضيره ، وهو الصغير الناشىء أن يؤجل عرض مبتكراته الى فرص آتية . ولكن هكذا شاء القدر ...

***

حقد نتنزه عنه الفنـــان

ولكن لم يلبث الحسد أن دب فى صدر اسحاق . فما أن خلا بزرياب بعد ذلك حتى قال له :

« ان الحسد أقدم الأدواء ، والدنيـا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة ، ولا حيلة فى حسمها . وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من اجادتك وعلو طبقتك . وقصدتُ منفعتك فاذا أنا قد أتيتُ نفسى من مكمنها بادنائك . وعن قليـل تسقط منزلتى وترتقى أنت فوقى . وهذا ما لا أصاحبك عليه ، ولو أنك ولدى . ولولا رعيى لذمة تربيتك لما قدمت شيئا على أن أذهب نفسك وليكن فى ذلك ما كان ، فتخير فى اثنتين لا بد لك منهما : اما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبرا بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك

بمـا أردت من مال وغـيره ، واما أن تقيم على كرهي ورغمي مستهدفاً لسهامي فاني لا أبقي عليك ولا أدع اغتيالك ، باذلا في ذلك بدني ومالي . فاقض قضاءك » .

ان اسحاق قد نال من المكانة الفنية أرفعها ، وبلغ من المجد الفني قمته ، فعند غنائه يسكت كل صوت ، والى فنه ينتهي كل تقدير واعجاب . فقوله مسموع ، وكلمته نافذة . وهو فوق ذلك كله النديم المقرب والأنيس المحبب والجليس المدلل والفنان المقدم . وقد وسع الله عليه وعلى أبيـه في الرزق ، ويسر له الأموال بلا عد ولا احصاء . فكيف ضاق صدره بتلميذه ، وهو صنعته وثمرة غرسه ! ! .

حقاً انه لعجيب من اسحاق وهو صاحب الثقافات كلهـا والمعرفة الأكيدة بسائر العلوم قديمها وحديثها ، والدراية التامة بجميع أنواعها في مختلف عصور تطورها ...

اسحاق الذي كانت ألحانه معجزة عصره ، يتهيب أداءها أعلام المغنين ، حتى وصفها مخارق أحذق مغنى في ذلك العصر بقوله :

« ان ألحانه بمنزلة طريق ضيق وعر صعب المرتقى ، أحد جانبي الطريق حرف الجبل وعن جانبه الآخر الوادي . فان مال مرتقيه عن محجته الى جانب الوادي هوى ، وان مال الى الجانب الآخر نطحه حرف الجبل فتكسر » ...

اسحاق الذي كان يتهيبه جميـع المغنين في حضرة الخلفاء لتفوقه عليهم في صنعته وتفرده في طرائق الأداء بطابع تميز به

غناؤه حتى قال عنه زرزور ، وكان أحسن من اسحاق صوتا :

« كنا والله نحضر معه فنجتهد فى الغنـــاء ، ونظن أنا قد غلبناه فاذا غنى عمل فى غنائه أشياء من مداراته وحذقه ولطفه حتى يسقطنا ، ويقبل عليه الخليفة دوننا ، ونرى أنفسنا اضطرارا دونه » ...

اسحاق الذى ورث عن والده ـــ وكان الموسيقار الأول فى بغداد ـــ تراثا من الأغانى آثره به وحده ، وضن به على الجميع ليكون ذخـــيرة تؤمّن اسحاق من منافســـة المعاصرين أمام الخلفاء ...

اسحاق الذى كان يتحدى فى حضرة الرشيد أمهر أعلام الغناء وفى مقدمتهم ابراهيم بن المهدى زعيم المدرسة الحديثة فى الغناء وأخو الرشيد ...

اسحق الذى لم تستطع مهرة العازفين التفوق عليه حتى فى شيخوخته بعد أن تقدمت به السن وأعفاه الخليفة الواثق من العزف ، فاستطاع هو أن يتحدى أمهر عازف فى زمانه وضرب على عود أفسدوا تسوية أوتاره فلم يخرج عن لحنه فى موضع واحد ...

ما لاسحاق هذا يتضاءل ، وهو فى قمة مجده ، وينهار أمام شاب ناشيء يتحداه ويتحدى عوده !!.. وتضيق دنيا بغداد أمام عينى اسحاق عن أن يتسع أفقها له ولتلميذه الشاب فيطلب اليه الرحيل منها ، وينذره بالقتل ان لم يفعل ، فيؤثر زرياب الحياة بمنأى عن المكايدة والحسد ويختار الرحلة عن بغداد . ولو

أنه بقي فيها لازداد به اسحاق رفعـــة وعلو مكانة . ذلك لأن الأستاذ الحقيقي يحب بملء قلبه أن يرى بين تلاميذه من يفوقه ، لأنه يكون امتداداً لفنه ، وتخليداً لتاريخه ، بأنه هو الذى أثمر هذا الانتـــاج .

وفى هذه المأساة المبكية عبر وحقائق ذات شأن . فها نحن نرى اسحاق بعد أن ظن نفسه قد ملك الدنيا بما بلغه فى فنه حتى سما فيه على جميع معاصريه ، ... واذا بتلميذه الشاب الأسود يختفى وينطوى على نفسه ، فيبتكر ويخترع فى صناعة آلة العود وفى أوتارها ويبرع فى ابتكار الألحان واختيار الأشعار المناسبة . ثم هو لا يعلم ذلك كله حتى يفاجأ به كفجاءات القدر بين يدى الرشيد ، فيدب فى نفسه ما يشبه الحمى القاتلة غيظا وكمدا . وكأن هذه الحقيقة تقول لكل فنان ولكل عالم :

كن طريقاً الى غيرك ، ودع الدنيا تسير قوافلها الى الأمام . ثم لا تغتر بموهبتك ، فقد يطالعك زرياب من وراء حجاب .. وان الأنانية ومحاولة كبت المواهب ، وستر أشعة الكواكب ، لا تغنى شيئا عن الحاقدين . بل هى أبلغ فى اظهار الموهوبين واعلاء مكانة النابغين .

* * *

ويمضى اسحاق فى الكيد لتلميذه .. فما كاد الرشيد يعود الى طلب زرياب حتى أجابه اسحاق :

« ومن لى به يا أمير المؤمنين ، ذلك غلام مجنون يزعم أن

الجن تكلمه ، وتطارحه ما يزهى به من غنائه . فما يرى فى الدنيا من يعدله . وما هو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدر التقصيربه والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه ، مستخفيا عنى . وقد صنع الله تعالى فى ذلك لأمير المؤمنين لأنه كان به لمم [1] يغشاه ويفرط خبطه فيفزع من رآه » .

فسكن الرشيد الى قول اسحاق وقال :

« على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كبير » .

وغريب من اسحاق أن يسلك هذا المسلك ، وهو يعلم أن ما ادعاه على زرياب من أن روحا تتقمصه فتوحى اليه بالألحان لم يكن غريبا على الفنانين فى هـذا العصر ولا مستبعداً فى تخيلاتهم ..

فان ابن جامع الذى كان يعاصر ابراهيم الموصلى وينازعه المقام الفنى الرفيع الى أبعد الحدود ، حتى لقـد حكم بينهما « برصوم الزامر » حكم معاصر فنـان ، وهو حكم تصويرى شاعرى يضع كلاً منهما فى موضع لا ينتقص فيه من فضله ، فقال حين سئل عنهما :

« الموصلى بستان تجد فيه الحلو والحامض والطرى الذى لم ينضج ، فتأكل من هذا وذاك . وابن جامع زق عسل ، ان فتحت فمه خرج عسل حلو ، وان فتحت يده خرج عسل حلو ، كله جيـد » .

---

(١) طرف من الجنون .

فهل ابن جامع هذا فى حاجة الى ادعاء أن أرواحا تتقمصه فتوحى اليه بالألحان كما أشاع اسحاق عن زرياب حين أراد الانتقاص منه ؟

روت « حولاء » جارية ابن جامع هذا أن مولاها الفنان استيقظ يوما من نومه فتلهف على ولده هشام وناداه وطلب أن يقبل على عجل بعوده ليسجل لحنا قبل أن ينساه ، وقد حفظه عن رجل من الجن فى نومه . فجاء ولده مسرعا وبيده العود . فتغنى ابن جامع رَمَلاً لم تسمع الجارية أحسن منه ، وكان ابنه يتابعه . أما ألفاظ اللحن فهى :

أمست رســـوم الديار غيَّرها
هوج الرياح الزعازع العصف
وكل حنـــانة لهـــا زجـــل
مثل حنـــين الروائم الشـــغف

وأطلق على هذا اللحن بعد ذلك لحن الجن .

وحين قرأنا نحن هذه القصة التخيلية القديمة لم نقل ان ابن جامع كان غريب الأطوار وان أرواحا كانت تتقمصه فتوحى اليه بموسيقاه ، بل فسرنا هذه الرواية على فرض صحتها — بأن الفطرة الغنائية لابن جامع تغلب عليه فى يقظته ، وتقض مضجعه اذا نام ، فتتسلسل الأنغام والألحان فى عقله الباطن ، وتتمثل له فى الرؤيا . فاذا استيقظ كان قد وعاها وحفظها ... شأن الفنان الحق يلازمه فنه ولا يبارحه ، يستيقظ به ولا ينام عنه . فهو مستيقظ حتى فى نومه ...

ونرى حتى ابراهيم الموصلي والد اسحاق الذى يشيع هذه الشائعات عن تلميذه زرياب انتقاصا لعقليته . ابراهيم هذا كان يدعى أيضـــا أن له شـــيطانا يعلمه ويلهمه ، وما دام لأولئـــك الشعراء فى الجاهلية شـــياطين ، وما دامت الجن فى الغيران [1] والكهوف النائية تلهم القصائد والمعلقات فلم لا يكون لابراهيم واحد من أولئك ، فالشعر والغناء متلازمان منذ قديم الزمان !!.

فحين أراد ابراهيم الموصلي أن يزعم أنه هو الذى ابتكر نوع الغناء الماخورى أورد فى ذلك قصة ، بل أســـطورة من نسج الخيال ، وخرافة لا يمكن تصديق وقوعها فى عالم الحس والواقع ، وان تناقلتها عنه كثرة من كتب الأدب .

فقد حدث اسحاق عن أبيه ابراهيم قال :

« استأذنت الرشيد أن يهب لى يوماً من أيام الجمعة لأنفرد فيه بجوارى .. واخوانى . فأذن لى فى يوم السبت . وقال : هو يوم أستثقله فاله فيه بما شئت قال (الموصلى) فأقمت يوم السبت بمنزلى وأخذت فى اصلاح طعامى وشرابى بما احتجت اليه . وأمرت البواب أن يغلق الأبواب وألا يأذن لأحد فى الدخول علىّ . فبينما أنا فى مجلسى ، والحرم قد حففن بى ، اذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال ، عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة ، وبيده عكازة مقمعة بفضة . وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق . فدخلنى

(۱) جمع ، ومفرده غار .

غيظ عظيم لدخوله علىّ . وهممت بطرد بوابى . فسلم علىّ أحسن سلام ، فرددت عليه ، وأمرته بالجلوس فجلس . وأخذ فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها ، حتى سكن ما بى من الغضب . وظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بادخال مثله علىّ لأدبه وظرفه . فقلت : هل لك فى الطعام ؟ قال : لا حاجة لى فيه . قلت : فالشراب ؟ قال : ذلك اليك . فشربت رطلا وسقيته مثله . فقال : يا أبا اسحاق ، هل لك أن تغنينا شيئا فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام ؟ فغاظنى قوله . ثم سهلت الأمر على نفسى فأخذت العود فجسسته ، ثم ضربت وغنيت فقال : أحسنت يا ابراهيم . فازددت غيظا . وقلت ما رضى فى دخوله بغير اذن ، واقتراحه علىّ ، حتى سمّانى باسمى ، ولم يجمل مخاطبتى . ثم قال : هل لك أن تزيد ونكافئك ؟ قال (ابراهيم) : فتعجبت من قوله . وقلت فى نفسى بم يكافئنى ؟ ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيته ، وقمت به قياما تاما لقوله لى ، أكافئك . فطرب وقال : أحسنت يا سيدى . ثم قال : أتأذن لعبدك فى الغناء ؟ فقلت : شأنك ، لكنى استضعفت عقله فى أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى . فأخذ العود وجسه . فوالله لقد خلت أن العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده . واندفع يغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى

بها كبدا ليست بذات قروح ؟

أباها عليّ الناس لا يشـــترونها

ومن يشترى ذا علة بصـــحيح ؟

أئن من الشوق الذى فى جوانحى

أنين غصيصى بالشراب قــريح

قال ابراهــيم : فوالله لقــد ظننت أن الحيطان والأبواب والسقوف وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن صوته . حتى خلت والله أنى أسمع أعضائى وثيابى تجاوبه . وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة ، لما خالط قلبى من اللذة التى غيبتنى عن الوجود . فلما رآنى كذلك أخذ العود ثانياً ، واندفع يغنى :

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة

فانى الى أصـــواتكن حــزين

فعدن ، فلما عــدن كدن يمتننى

وكـــدت بأسرارى لهــن أبين

وعـــدن بترداد الهدير كأنمــا

شربن الحميـــا أو بهن جنـــون

فلم تر عيــنى مثلهن حمائمــا

بكين ولم تدمــع لهن عيــون

فكاد عقلى أن يذهب طربا . ثم غنى :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد

لقد زادنى مسراك وجداً على وجد

أأن هتفت ورقاء فى رونق الضحى

على غصن غض النبات من الرند

بكيت كما يبكى الحزين صبابة

وذبت من الوجد المبرّح والجهد

وقد زعموا أن المحب اذا ناى

يمل وأن النأى يشفى من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا

على أن قرب الدار خير من البعد

ثم قال : يا ابراهيم ، هذا الغناء الماخورى ، خذه وانح نحوه فى غنائك ، وعلمه جواريك . فقلت : أعده علىّ . فقال : لست بمحتاج قد أخذته وفرغت منه . ثم غاب من بين عينى . فارتعت لذلك ، وقمت الى السيف فجردته ، ثم عدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة . فقلت للجوارى : أى شىء سمعتن عندى ؟ فقلن : سمعنا غناء لم نسمع قط أحسن منه . فخرجت متحيراً الى باب الدار ، فوجدته مغلقا . فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج ، فقال : أى شيخ ؟ والله ما دخل عليك اليوم أحد . فرجعت لأتأمل أمرى . فاذا هو قد هتف بى من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحاق أنا أبو مرة ابليس . وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع [1] . فركبت الى الرشيد وأخبرته بالحديث . فقال : ويحك ، أعد الأصوات التى أخذتها . فأخذت العود وغنيتها كما هى راسخة فى صدرى . فطرب

---

(1) لا تفزع .

الرشيد ، وجلس يشرب ، ولم يكن عزم على الشراب . وقال : كان الشيخ أعلم بما قال انك قد أخـذتها وفرغت منها ، فليته أمتعنا بنفسه يوما واحداً كما متعك . وأمر لى بصلة . فأخذتها وانصرفت » .

ومن العجب أن يتندر اسحاق عن زرياب بايحاء الجن له ، قصداً منه الى تشويه طبيعته والتحقير من شـأنه ، بينما هو ينقل عن أبيه أعجب قصة محبوكة الأطراف طويلة الفصول ، يذكرها على سبيل المباهاة ، وهى جديرة بالسخرية من ناقلها ومدعيها والمصدق لها . وكان حريا به أن يتخذ من قصة أبيه ما يعذر به زرياب لو كانت به تلك المنقصة أو كان ممن يدعى ايحاء الشياطين والهام الجن ليرتفع بفنه الى العالم المجهول .

بل ان الأغرب من كل ما مضى أن اسحاق (وهو يرى فى ذلك أمراً غير طبيعى ما دام فيه انتقاص لتلميذه زرياب) لم يجد به منقصة حين يروى هو عن نفسه مثل هـذه القصص التخيلية وفى قصر بلاط الرشيد .

فقد جاء فى مروج الذهب للمسعودى ، أن اسحاق الموصلى حدث عن نفسه قال :

« بينا أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه اذ طرب لغنائى ، وقال : لا تبرح . ولم أزل أغنيه حتى نام . فأمسكت ، ووضعت العود من حجرى ، وجلست مكانى . فاذا شاب حسن القد ، عليه مقطعات خز ، وهيئة جميلة ، فدخل وسلم وجلس . فجعلت أعجب من دخـوله فى ذلك الوقت الى ذلك الموضـع بغير

استئذان . ثم قلت فى نفسى عسى بعض ولد الرشيد ممن لا نعرفه ولم نره . فضرب بيده على العود ، فأخذه ووضعه فى حجره ، وجسه فرأيت أنه جس أحسن خلق الله . ثم أصلحه اصلاحا ما أدرى ما هو . ثم ضرب ضرباً فما سمعت أذنى صوتا أجود منه . ثم اندفع يغنى :

ألا عللانى قبل أن تتفرقا
وهات اسقنى صرفاً شرابا مروّقا
فقد كاد ضوء الصبح أن يفضح الدجى
وكاد قميص الليل أن يتمزقا

ثم وضع العود من حجره وقال : ... اذا غنيت فغن هكذا ، ثم خرج . فقمت على اثره ، فقلت للحاجب : من الفتى الذى خرج الساعة ؟ فقال : ما دخل هنا أحد ولا خرج . فقمت متعجبا ، ورجعت الى مجلسى . وانتبه الرشيد ، فقال : ما شأنك ؟ فحدثته بالقصة ، فبقى متعجبا . وقال : لقد صادفت شيطانا . ثم قال : أعد على الصوت . فأعدته ، فطرب طربا شديداً ، وأمر لى بجائزة ، وانصرفت .

ها هو ذا اسحاق ، اذن ، قد نال الجائزة مكافأة على تأليف قصة وتلحينها واخراجها . وهى فى موضوعها ترديد لقصة أبيه وقصة ابن جامع .

ثم هو بعد ذلك يعيب على زرياب ما يعتبره فخراً له ولأبيه من قبله !!

ويتمادى اسحاق فى اذاعة السوء من حول زرياب ،

والطعن على عقليته وفهمه واحاطته بكل كلمة نابية وسمعة سيئة ، مما اضطره أخيراً الى التفكير الجدى فى مغادرة مسقط رأسه وأحب مكان اليه ...

* * *

اعتزام الرحيـــل

والآن نجد أنفسنا أمام سيل متدفق من الأسئلة قد يوجهها الينا الأدباء أو لعلهم قد وجهوها بالفعل .

لمَ لم يقابل زرياب الضربة بمثلها ؟

لمَ لم يقم فى بغداد على رغم اسحاق الذى انقلب ضده بين عشية وضحاها من أستاذ مشجع الى منافس حقود ؟

لمَ لم يرفع الأمر الى الرشيد بطريقة أو بأخرى ، ويظهر ما يكنّ له أســـتاذه من الكيد ، وما يضمر له فى الخفاء من اغتياله ؟ .

ولو قد فعل ذلك ووقف موقف شجاعة وعدم مبالاة ، اذن لتغير الموقف ولحقق زرياب لنفســـه انتصارا يصـــبح به نجم بغداد غير منازع ، ثم يتوارى اسحاق بدسائسه ومكايده .

بل لمَ أعوزت الحيلة زرياب فلم يطلب مهادنة خصـــمه الأستاذ ؟

لمَ استجاب بسرعة للرحيل من بغداد ، وارتعد أمام الانذار كأنما كان ينتظره ويتوقعه ؟ ولو أنه تريث واستأذن أستاذه فى

البقاء قليلا ، فلعل اسحاق كان قد راجع نفسه فتعود المياه الى مجاريها .

وأخيراً نقول نحن بدورنا :

هل كان من الممكن أن يظل زرياب فى بغداد على الرغم من اسحاق ومكايده وتهديداته ، وعلى الرغم من الدسائس والشائعات التى يطلقها عنه فى كل مكان ؟

هل كان من الممكن أن يظل زرياب مستقراً فى بغداد ، خصوصا وقد أصبحت له فيها أسرة من زوجة وأطفال ، فيكتفى بالحياة بعيداً عن البلاط وما يعرض له فيه من مكائد الحاسدين ، قانعا بالعيش مع الشعب ، والغنـــاء للشعب ، ما دام الشعب متعلقا بالغناء مقدراً له ؟ وعلى هذا يكفى نفسه مشقة الرحيل الى بلد مجهول ، الله وحـــده يعلم ماذا يكون مصيره ومصير أسرته فيه !!.

الجواب أن اقامة زرياب فى بغداد بعيداً عن قصور الخلفاء والأمراء وأضواء مجالسهم ومحافلهم ، هذه الاقامة لم يكن فى المستطاع أن تتحقق .

ذلك أن ما قدمناه من صور رائعة للبذخ والثراء التى كانت تزخر بها بغداد ، وتلك الحياة المترفة التى كان ينعم بها أهلها ، كانت مقصورة على طبقات الخاصة . فقد كان المال وفيراً والترف والنعيم بالغا أقصاه فى بلاط الخلفاء وقصور الأمراء . أما الشعب فأكثره بائس فقير .

لهـــذا كانت أنظار الناس متجهة فى عنايتهـــا الى الخلفاء والأمراء . فاذا التمس العلماء الغنى لم يجدوه الا فى التقرب اليهم . والشعراء ان أرادوا العيش لم يجدوه الا فى مديحهم . والتجار ان وقع شيء ثمين فى يدهم من جوهر أو جوار لا يجدون سوقا لها الا فى قصورهم . والصناع اذا أحسنوا صناعة شيء فاليهم وحدهم يقصدون . أما بقية الشعب ففقير بائس ، قل أن يجد الكفاف .

فالعلماء اذا أبعدوا عن القصور عزّ قوتهم . والشعراء لا يكتبون القصائد لأنفسهم ولا لعواطفهم وانما ينظمون للمال ، ومن أجله ينشدون الشعر بين يدى الخلفاء والأمراء وهكذا أصحاب الفنون وأهل الموسيقى والغنـــاء . وكان أكثر مديح الخلفاء والأمراء مقصوراً على وصفهم بالجود والسخاء ، لا باقامة العدل بين الناس .

لذا كان بجانب هذا الغنى المفرط والامعان فى اللذائذ فقر مدقع عض بنابه كثيرا من العلماء والفلاسفة وأوساط الفنانين وعامة الشعب ممن لم يتصلوا بالخلفاء ومن اليهم .

حدث المؤرخون أن عبد الوهاب البغدادى المالكى ، وهو أديب ، شاعر له المصنفات الرائعة فى الفقه ، لم يكن فى المالكيين أفقه منه فى زمانه ، تضيق به المعيشة فى بغداد حتى لا يجد قوت يومه . ويخرج عنها طالبا للرزق . ولما ودعه أكابرها قال لهم : « لو وجدت بين ظهـــرانيكم رغيفين كل غداة ما عـــدلت عن بلدكم » .

ثم أنشد يقول :

سـلام على بغـداد فى كل موطن
وحـق لها منى سـلام مضـاعف
فوالله ما فارقتهـا عن قلى ً لهـا
وانى بشـطى جانبيهـا لعـارف
ولكنها ضـاقت علىّ بأسرها
ولم تكن الأرزاق فيهـا تسـاعف
وكانت كخِـل كنت أهوى دنوه
وأخلاقه تنـأى به وتخـالف

ولما بلغ مصر ــ على نحو ما رواه ابن خلكان ــ مات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها . فزعموا أنه قال وهو يتقلب : « لا اله الا الله ، اذا عشنا متنا » .

وهذا هو أبو على القالى البغدادى ، صاحب كتاب الأمالى ، ضاقت به الحال واضطر الى أن يرحل الى أقصى الغرب حتى بلغ الأندلس . وقد دفعت به الحاجة الى أن يبيع بعض كتبه ، وهى أعز شيء عنده . فباع نسخته من كتاب الجمهرة وكان كلفا بها . فاشتراها الشريف المرتضى ، فوجد عليها بخط أبى على :

أنست بهـا عشرين عاماً وبعتهـا
فقد طال وجدى بعـدها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعهـا
ولو خلدتنى فى السـجون ديونى

ولكن لضعف وافتقـار وصـبية
صـغار عليهم تسـتهل جفـونى

.... وهذا الزمخشرى يقول :

ومما شـجانى أن غـر مناقبى
يغنّى بهـا الركبان بين القـوافل

وطارت الى أقصى البلاد قصائدى
وسارت مسير النيرات رسـائلى

وكم من أمال لى وكم من مصنَّف
أصـاب بها ذهنى محز المفاصـل

غـنى من الآداب لكننى اذا
نظـرت فما فى الكف غير الأنامل

وحكى أبو الحيان التوحيدى حادثة انتحار فظيعة قال :

« شاهدنا فى هذه الأيام شيخا من أهل العلم ساءت حاله ، وضاق رزقه ، واشتد نفور الناس عنه ، ومقت معارفه له . فلما توالى عليه هذا دخل يوما منزله ، ومد حبلا الى سقف البيت واختنق به » .

وهكذا لم تكن الفنون لتجد طريقها الى الرواج الا فى كنف الخلفاء والأمراء ، ولم يكن الشاعر يعبر فى صـدق عن شخصيته أو وجدانه الا قليلا ، وكذلك الفنان لم يكن يصور شعوره الخاص الا نادرا . فكلهم يقصد خليفة أو أميرا يعرض عليه سلعته من شعر أو فن .

ولذلك اصطبغت الآداب والفنون بلون الاستجداء ، لأن العصر لم يكن عصرا ديمقراطيا ، يستطيع الفنان أن يعيش فيه لنفسه أو لخدمة الشعب ، كما هو الحال فيما تطورت اليه مفاهيم العصور الحديثة ، بل كان عصراً أرستقراطيا لا ينعم فيه سوى الأرستقراطيين من أصحاب القصور وذوى الشأن ومن شاء أن يعيش على موائدهم .

وكذلك كان من العلماء طائفة تعيش على اتصال بالخلفاء والأمراء أو تشغل مناصب الدولة كالخطابة والقضاء وهؤلاء كانوا فى رغد من العيش وعلى جانب من اليسار .

حتى مؤلفات الفنانين فى هذا العصر كان تأليفها ــ الى المدى الكبير ــ تنفيذا لأمر وزير أو أمير أو نحوه . وكان تصدير مثل هذه المصنفات انما هو اشادة بفضل هذا الذى كلفهم التأليف .

* * *

ومن هنا كان لا بد لزرياب من احدى طريقتين :

اما أن يتحدى أستاذه فيقيم فى بغداد على الرغم منه ، مكتفيا بأن يعيش مع الشعب ، قانعا باليسير من الرزق ، فيظل حياته مغمورا معدما ، مستهدفا لجميع أنواع الأذى من خصومه وحاسدى فنه ، ...

واما أن يختار الرحيل الى فضاء الدنيا الواسعة ، معتمداً على فنه ، وثقته بنفسه ، وايمانه بالنجاح فى أى مكان يحل به .. والذى يدرك النجاح فى أولى خطوات حياته ، فى بلاط أعظم خليفة فى عصره ، متحديا أعلم موسيقار فى زمانه ، لن يعدم وسائل الفوز عند أى خليفة أو حاكم يصل اليه فى أى بلد .

واذن فلا مناص من الرحيل ...

* * *

الفصل الرابع

إلى أين الرحيل

- الطريق الى القيروان .
- قصة القيروان .
- ملوك الأغالبة وزرياب .

إلى أين الرحيل

لقد اعتزم زرياب الرحيل من بغداد . ووجب أن يتم ذلك الرحيل والاستعداد له فى كتمان وخفاء . ذلك أنه يجرى فى اتفاق سرى بينه وبين اسحاق ، على ألا يعلم به الرشيد ولا أحد من حاشيته .

كذلك ينبغى أن تكون الرحلة الى بلد ليس للرشيد ، ولا لأحد من أعوانه سلطان عليه ، والا كان كالخارج على دولته فيتعرض بذلك لأشد المؤاخذة وأعظم النقمة .

وطبيعى أن يكون البلد الذى يقع الاختيار عليه عربيا ، تطيب له فيه الاقامة هو وأسرته .

فهو اذن دائم التفكير ، يسأل نفسه ويسأل خاصته :

الى أين الرحيل ؟

ان زرياب ليعلم ، كما يعلم غيره ، من التاريخ الذى ليست وقائعه بعيدة عن العصر الذى يعيش فيه انه على أثر انقراض الدولة الأموية (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) قد أوقع العباسيون القتل فى الأمويين ، ولم ينج منهم سوى عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام ، فانه فر هاربا الى بلاد الأندلس ، ودعا أهلها الى بيعته ، فبايعوه ، وأسس بها دولة أموية جديدة بقرطبة

تسمى الدولة المروانية ، غير تابعة للدولة العباسية وكان ذلك عام ١٣٩ هـ (٧٥٧ م) [١] .

ولم تكن بعيدة عن سمع زرياب الأصداء التى يرددها الغادون والرائحون فى وصف بلاد الأندلس ، وقد قيل :

« ان الله خصّ بلاد الأندلس من الربيع ، وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الانسان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الادراك ، واحكام التمدن والاعتمار ، بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها » .

كما قيل فيه : « الأندلس هو خير الأقاليم ، وأعدلها جوا وترابا ، وأعذبها ماء وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا » .

وقيل : « الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملى الفلسفة » .

ووصفه الرازى بقوله :

« بلد الأندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب . وهو

---

(١) وسنلتقى بعبد الرحمن بن معاوية وبأخبار خلفائه مع زرياب فيما بعد فى هذا الكتاب .

عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيّب التربة ، خصب الجناب ، منبجس الأنهار الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معتدل الهواء والجو والنسيم ، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال وسطة من الحال لا يتولد فى أحدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص ، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة ... » .

فلم لا تكون الرحلة الى الأندلس هذه ؟

ثم ان زرياب يعلم فوق ذلك أن مدينة « القيروان » عاصمة المغرب الأوسط قد استقل بها الملوك الأغالبة ، حتى لم يعد لسلطان بنى العباس عليها الا مجرد الصلة الدينية التى تقتصر على الدعاء لخليفة الاسلام فى خطبة الجمعة .

ومدينة القيروان هذه ، فى جمال موقعها ، وطيب هوائها ، وبديع مناظرها كما قيل فيها :

رياضٌ تعشّقها سندس   توشّت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدّى ربا   لها نظرة فتنت من نظر

واشتهر ملوكها بميلهم للفنون وتشجيع أهلها .

فلم لا تكون الرحلة الى القيروان ؟

وما السبب فى هذه الحيرة وما موجبها ، والطريق واحدة الى كل من القيروان والأندلس ، فيستطيع أن يبدأ بالأولى فاذا طاب له بها المقام فذاك ، والا فليس ما يحول دون استئناف المسير الى الأندلس .

وهذا هو الذى عقد العزم عليه ، وهذا هو الذى سيتم .

الطريق إلى القيروان

لا تكترث بفوات أوقات الصبا
فعسى تنال بغيرهن سعودا
فالدر ينظم عند فقد بحاره
بجميل أجياد الحسان عقودا

بدأ زرياب رحلته سرا من بغداد ، ومر بالشام ومصر . واجتاز الصحراء . وقطع المسلك برا وبحرا . ولا مناص من أنه لقى هو وأسرته وأطفاله الصغار أهوالا غير محتملة ، لم يصفها لنا زرياب ، ولم يكتبها عنه أحد من معاصريه ، لأن الرحلة كما ألمعنا اليها بدأت فى الخفاء ، واستمرت كذلك حتى تجاوز مواضع الخطر الذى كان يخشاه من سلطان بنى العباس .

واذا لم يكن قد أتيح لنا أن نتلقى وصفا لهذه الرحلة ومتاعبها ، فاننا نستطيع أن نتمثلها فى وضوح تام حين نقرأ هذا الوصف الذى قدمه لنا معاصروه ممن قاموا بمثل رحلته هذه ، وعانوا مشاق البحر والبر ، وقد مروا بالشام ثم أبحروا حتى وصلوا الى مصر ، فأحسوا بالطمأنينة . وطاب للكثيرين منهم المقام ، كما اكتفى بعضهم بشهور شاهدوا فيها مناظر النيل ورياض مصر الغناء ، ثم مضوا لسبيلهم ، فقالوا فى وصف تلك الرحلة :

« ثم جدّ بنا السير فى البر أياما ، ونأينا عن الأوطان الى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر ، وشاهدنا من أهواله وتنافى أحواله ما لا يعبّر عنه ولا يبلغ له كنه :

البحــر صعب المرام جدا   لا جعــلت حاجتى اليــه
أليس مــاء ونحــن طين   فما عسى صــبرنا عليــه

فكم استقبلنا أمواجه بوجوه بواسر ، وطارت الينــا من شراعه عقبان كواسر ، قد أزعجتها أكف الريح من وكرها ، كما نبّهت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئا من قوّتها ومكرها . فسمعنا للجبال صفيرا ، وللرياح دويّا عظيما وزفيرا ، وتيقنّا أنّا لا نجد من ذلك الا فضل الله مجيرا وخفيرا . « واذا مسكم الضر فى البحر ضلّ من تدعون الا اياه » ، وأيسنا من الحياة ، لصوت تلك العواصف والمياه ، فلا حيّا الله ذلك الهول المزعج ولا بيّاه . والموج يصفّق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد ويقترب . وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق . فتخال الجو يأخذ بنواصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها . حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها ، وعنان السحب يخطف فى استقلالها ، وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفهــا واعتلالها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها . وساءت الظنون ، وتراءت فى صورها المنون . والشراع فى قراع مع جيوش الأمواج ، التى أمدّت منها الأفواج بالأفواج ، ونحن قعود ، كدود على عود ما بين فرادى وأزواج . وقد نبت بنا

من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا . وتوهمنا أنه ليس فى الوجود أغوار ولا نجود ، الا السماء والماء ، وذلك السفين ، ومن فى قبر جوفه دفين . مع ترقب هجوم العدو ، فى الرواح والغدو لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمر الله سبحانه من فيها وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب . لا سيما مالطة الملعونة ، التى يتحقق من خلص من معرتها أنه أمد بتأييد الهى ومعونة . فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا ، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا . فزادنا ذلك الحذر ، الذى لم يبق ولم يذر . على ما وصفناه من هول البحر قلقا ، وأجرينا اذ ذاك فى ميدان الالقاء باليد الى التهلكة طلقا ، وتشتتت أفكارنا فرقا ، وذبنا أسى وندما وفرقا . اذ البحر وحده لا كمى يقارعه ، ولا قوى يصارعه ، ولا شكل يضارعه . لا يؤمن على كل حال ، ولا يفرق بين عاطل وحال ، ولا بين أعزل وشاكى ، ومتباك وباكى :

ثلاثة ليس لها أمان البحر والسلطان والزمان

فكيف قد انضم اليه خوف العدو الغادر الخائن ، والكافر الخائن ، الى أن قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن ، وان نهى عنه وأخطأ المائن . فرأينا البر وكأنا قبل لم نره ، وشفيت به أعيننا من المره . وحصل بعد الشدة الفرج ، وشممنا من السلامة أطيب الأرج . فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها النقاب ، يقل شكرا لها صوم الأحقاب وعتق الرقاب . جعلنا الله بآياته معتبرين ، وعلى طاعته مصطبرين . ولم نخل فى البر

من معاناة خطوب ، ومداراة وجوه للمتاعب ذات تجهم وقطوب .
فكم جبنا منه مهامه فسيحا ، ومسحنا بالخطا منها أثيرا وصفيحا .
وفلينا الفجـاج ، وقرأنا من الطرق خطـوطا ذات استقامة
واعوجاج ، وقلوب الرفقة من الفرقة فى اضطراب وارتجاج ،
وربما عميت على المجتهد الأدلة التى يحصل بهـا على المذهب
الاحتجاج ، فترى الأنفاس تعثر فى زفرة الأشواق ، والأجسام
قد زرت عليها من التعب الأطواق . هذا والليل بصفحة البدر
مرتاب ، وقد شدت رحال وأقتاب ، وزمت ركاب ، ورفعت
أحداج ، وفريت من الدعة بمدية النصب أوداج ، وتساوى فى
السير نهار مشرق وليل مقمر أو داج . وأديم التأويب والآساد ،
وحمل الغربة قد أثقل وآد . ثم وصلنا بعد خوض بحار يدهش
فيها الفكر ويحار ، وجوب فياف مجاهل يضل فيها القطا عن
المناهل . الى مصر المحروسة فشفينا برؤيتهـا من الأوجاع ،
وشاهدنا كثيرا من محاسنها التى تعجـز عن وصـفها القوافى
والأسجاع .

أنظر الى النيـل الذى ظهـرت به آيات ربى
فـكأنه فى فيضـه دمعى وفى الخفقـان قلبى »

ثم هو اذ يذكر النيل ومحاسن مصر يحس بالحنين الى وطنه
بغداد ومن خلفهم به من أحبّة وصحاب ، فينشد :

بالله قـل للنيـل عنى أننى
لم أشـف من ماء الفـرات غليلا

وسل الفؤاد فانه لى شاهد
ان كان طرفى بالبكاء بخيلا

يا قلب كم خلفت ثَمَّ بثينة
وأظن صبرك أن يكون جميلا

وعلى مثل هذه المشاق والمصاعب تنقل زرياب من قطر الى قطر ، ومن بلد الى بلد ، حتى دفعته الشام الى مصر ، ووجهته مصر الى برقة وليبيا ، ثم الى القيروان .

قصة القيروان

« القيروان » معرب ، وهو بالفارسية كاران . مدينة تقع فى الجنوب من مدينة تونس على مقربة من الساحل . يبلغ عدد سكانها الآن ١٩٠٠٠ نسمة ومعروفة بجامعها الضخم ، ومشهورة بصناعة السجاد والجلود . وهى عظيمة بتاريخها . فقد عمرت دهرا طويلا ، ولم يكن بالمغرب مدينة أجل منها فيما مضى . فقد كانت دار العلم ، يرحل اليها كل راغب فى طلبه من المغاربة . كما صنف الكثير من المؤلفات فى أخبارها ، وذكر علمائها ومن كان فيها من الزهاد والصالحين ، حتى لقــد اشتهرت باسم المدينة المقدسة . وكان حسب الرجل أن ينتمى اليها حتى يعرف بالعلم والأدب .

أسسها عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م فى عهد معاوية ابن أبى سفيان لتكون العاصمة الجديدة لولاية افريقية وقاعدة أمامية للفتوحات العربية فى المغرب تتجمع فيها الجيوش وتصدر عنهــا وتعود اليهــا ، ولتكون كذلك مركزا لنشر العــروبة والاسلام . وذلك على غرار ما جرت عليه سياسة العرب من انشاء الكوفة والبصرة فى العراق ثم الفسطاط فى مصر .

وقد رأى عقبة فى اختيار موقعها أن تكون هــذه المدينة

بعيدة عن ساحل البحر تجنبا لسفن الأسطول البيزنطى ، كما راعى فى نفس الوقت أن تكون غير متوغلة فى الداخل خشية البربر . وما زالت فى تقدمها المطرد حتى أصبحت كبرى مدن المغرب فيما بعد .

وكان أول ما بدأ به عقبة بن نافع فيها بناء المسجد الجامع ودار الأمانة . ومما يروى عنه أنه حين اختط هـذا المسجد تحيَّر فى قبلته فبقي مهموما ، فسمع فى نومه هاتفا يقول : « فى غد ادخل الجامع فانك تسمع تكبيرا فاتبعه فأى موضع انقطع الصوت فهناك القبلة التى رضيها الله للمسلمين بهذه الأرض » . فلما أصبح سمع الصوت ووضـع القبلة واقتـدى به بقية المسلمين .

وتعاقبت خلفاء بنى أمية فى دمشق ، وتغير تبعا لذلك ولاة الأقاليم ، فلما كان عهد عبد الملك بن مروان عهد بولاية المغرب الى حسان بن النعمان الغسانى ، من سلالة الغسانيين الذين كان لهم الملك والحكم فى الشام . وأعد حسان جيشه فى مصر وخرج منها عام ٧٤ هـ / ٦٩٤ م ليواصل فتح بلاد المغرب . وقد أقام فى مدينة القيروان بعد أن استتب له الأمر . وقد عنى بتجديد بناء المسجد وكانت قد خرَّبته البربر ، كما قام بتنظيم الادارة والجيش .

ولما آلت الخلافة الى الوليد بن عبـد الملك ، آلت شئون المغرب الى موسى بن نصير بدلا من حسان بن النعمان ، وكان ذلك عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م . فقضي موسى على قواعد المقاومة

فى افريقية حتى بلغ القيروان عاصمة المغرب . وسار موسى فى فتوحاته حتى المغرب الأقصى وتم له فتح بلاد الأندلس . وعاد الى القيروان العاصمة الافريقية فى موكب عظيم فبلغها آخر عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م .

وحين تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بعد الوليد تعرض موسى بن نصير لسخطه ووقع فريسة لغضبه ، وذلك لأسباب كان فى مقدمتها سوء معاملة موسى لطارق بن زياد لتنافسهما على فتح الأندلس ، ثم الاستيلاء على كنوز تلك البلاد الغنية وما كان بها من تحف وجواهر وتسليمها للوليد وهو يحتضر ، وقد أثار ذلك حقد سليمان الخليفة الجديد الذى كانت أمنيته أن ينتظر موسى بهذه الكنوز والتحف بعيدا عن الشام ريثما يتولى هو شأن الخلافة فيستقبل عهده بذلك الانتصار وتلك الغنائم .

وقد وقع اختيار سليمان على محمد بن يزيد فولاه افريقية ووصل الى القيروان مقر ولايته عام ٩٧ هـ / ٧١٥ م . واستمرت ولايته حتى وفاة سليمان بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبد العزيز التى تعتبر نقطة تحول هامة فى تاريخ الدولة الأموية عامة .

وقد ولى عمر على بلاد المغرب اسماعيل بن عبد الله الذى جرى فى ولايته على حسن السيرة واقامة العدل فكان خير أمير وأصلح وال . وفى مقدمة ما اهتم به دعاء البربر الى الاسلام واستجابتهم جميعا له ، فلم يبق منهم واحد الا وقد اعتنق

الاسلام . وأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز الى المغرب عشرة من علماء التابعين ، وبفضل جهود هؤلاء وغيرهم تعلم المغاربة أصـول الاسـلام ، فقرءوا القرآن وعرفوا اللغـة العربية وأجادوها .

وبانتهاء خلافة عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ / ٧٢٠ م) انتهى عصر الاصلاح ، وعادت الدولة الأموية تسلك مسلك الاستبداد بأهل الأمصار . فقد عزل يزيد بن عبد الملك الوالى الورع المصلح اسماعيـل بن عبد الله وولّى مكانه يزيد بن أبى مسلم أحد تلاميذ الحجاج ومعاونيه . فما كاد يستقر المقام بهذا الوالى حتى سار فى سياسته العنيفة سيرة الحجاج ، فعمّ شره وزادت قسوته ، حتى اغتاله أحد حرسه عندما خرج من داره لصلاة المغرب . وتبع ذلك عهد من الفتور اضمحلت فيه الدولة وتغيرت أحوال المغرب ، وكان ذلك ابان نهاية خلافة بنى أمية وقيام الدولة العباسية .

وكان اضطراب أمور الخـلافة فى الشام فرصـة مواتية انتهزها عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع ، وكان قد خرج من الأندلس مع عدد من زعماء جند الشام بعد أن فشلوا فى احداث فتنة بها . وسار ابن حبيب فى البحر الى افريقية واستقر بتونس ، مستغلا أحداث الخلافة الأموية التى كانت تتهاوى تحت ضربات العباسيين . ونجح فى التغلب على افريقيه ، وثبت بهـا أقدامه حتى تكون مملكة له . يتوارثهـا الأبناء والأحفاد من بعده . وتمكن من دخول القيروان عام ١٢٧ هـ /

٧٤٥ م . واستتب الأمر له ورسخت أقدامه فى المغرب . ولكن العلاقة بينه وبين العباسيين فترت وساءت الى حد القطيعة بعد خلافة المنصـــور ١٣٧ هـ / ٧٥٤ ـــ ٧٥٥ م . وأهم أسباب القطيعة اكتفاء ابن حبيب باعلان الولاء الشكلى للخليفة العباسى وامتناعه عن ارسال أموال الخراج السنوية اليه ، مما أدى الى ارتياب العباسيين فى اخلاص عبد الرحمن . وقد انتهز الخوارج بتحالفهم مع بعض قبائل البربر ، وبفضل اعلان الولاء والطاعة الى الخليفة الشرعى أبى جعفر المنصور ، من استخلاص القيروان فى عام ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م . وسرعان ما خلصت البلاد لهؤلاء الخوارج حتى ســـاروا فيها فساداً وقتلوا زعيمهم عاصم بن جيل « وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع وقتلوا كل من كان من قـــريش وعذبوا أهلها ، وســـاموا أهل القيروان ســـوء العذاب » .

وانفصلت بلاد المغـــرب عن الخـــلافة تماما . وخلصـــت الخوارج حتى ســـاروا فيها فساداً وقتلوا زعيمهم عاصم بن فريقين عرفا بالصفرية والأباضية . فاذا تخلصت القيروان من أحد الفريقين وقعت فى قبضة الآخر .

وحالت مشاغل الخلافة العباسية دون الاسراع بالتدخل فى شئون هؤلاء الخوارج وعندما استعدت الخلافة لهذا التدخل فى المغرب كانت قد قويت شوكة هؤلاء البربر فأمر الخليفة المنصور والى مصر القائد العباسى المشهور محمد بن الأشعث بمبادرة المسير الى المغرب لاخضاعها بعد أن أمده بالجيوش .

وجمع الأشعث قـواته وعسكر بها فى الجـيزة فى أوائل ذى الحجة عام ١٤٢ هـ / ٧٦٠ م . ثم سار على رأس الجيش عابراً النيل فى الطريق الى الاسكندرية . ووقعت أولى المعارك فى حدود طرابلس . وبعد قتال عنيف انتصرت جنود الخلافة وانهزم البربر ، ودخل الأشعث مدينة طرابلس . وتابع المسير حتى دخل القيروان فى جمادى الأولى ١٤٤هـ/٧٦١م. وبذلك استعادت الخلافة بلاد افريقيـة ، ولكن الى القيروان فقط . ونجح ابن الأشعث فى قهر خصوم الدولة ، واستتب له الأمر فى كل حـدود الولاية . ولم تقع حوادث هامة الى أن سقط حكم الأشعث فجأة . ولم يكن هـذا نتيجة ثورات قام بها البربر والخوارج ، بل كانت نتيجة لتألب الجنـد عليه . ففى عام ١٤٨هـ / ٧٦٥م ثار عليه أحد قواد الجند المصرى واسمه عيسى بن موسى بن عجلان مع عدد من رؤساء الجند وحاصروه فى مدينة القيروان وأجبروه على اعتزال الولاية كلها وذلك بدعوى عصيانه أمر الخليفة المنصور حين استدعاه اليه فرفض . ورأى الخليفة حسم الأمر بتولية أحد قواد جيش افريقية وهو الأغلب بن سالم التميمى ، وقد توسم فيه الكفاية والمقـدرة على ضبط الأمور فعهد اليه بتلك الولاية ، بعد أن أوصاه بأن يسير فى الرعية سير العدل وأن يحسن سياسة الجند ويعنى بتحصين مدينة القيروان .

ثم أعلن جماعة من الخوارج برياسـة الحسن بن حرب العصيان ، وقاموا من تونس فى حشـد كبير الى القيروان ،

وخرج اليهم الأغلب . وكان قتــالا مريراً لم ينته الى نتيجة حاسمة ، اذ فرّ الحسن عائداً الى تونس فلقى حتفه على أيدى زجال حاميتها . أما الأغلب فقد أصيب فى تلك الموقعة بسهم طائش فمات متأثراً بجراحه فى شعبان عام ١٥٠ هـ/سبتمبر ٧٦٧ م .

وحين علم الخليفة المنصــور بمقتل الأغلب اختار للمغرب رجلا فى مستوى تلك الأحداث الخطيرة وهو عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة من أسرة المهلب التى اشتهرت بحروبها ضد خوارج المشرق . وقد عرف عمر بالشجاعة وســداد الرأى والحكمة حتى لقب بهزار مرد (وهى ترجمة لكلمتى ألف رجل بالفارسية) . وكانت شخصيته ، الى جانب شهرة أسرته ، كافية لأن يفرض هذا القائد العظيم نفسه على الجميع ، وقد دخل القيروان فى صفر سنة ١٥١ هـ (مارس سنة ٧٦٨ م) واستقامت له فيها الأمور أكثر من ثلاث سنوات . ثم قامت ثورة عارمة عمّت الكثير من نواحى المغرب ، وكان عمادها الخوارج من الصفرية والأباضــية . ومع مرور الوقت كانت جموع الثوار تزداد كثرة بمن ينضم اليهم من الطامعين فى نهب القيروان ، حتى قيل ان عدد من حاصروها مائة وثلاثون ألفا . وطال الحصار الى ما يقرب من العام ، حتى نفدت المؤن من المدينة واشتد بأهلها الضيق والغلاء . ثم جاءت الأخبار بمسيرة جيش بعث به الخليفة بقيادة يزيد بن حاتم المهلب للمعاونة فى فك حصار مدينة القيروان ، فعزّ على هزار مرد (الألف رجل)

أن يقال يزيد أخرجه من الحصار على الرغم من أن يزيد كان من أركان عصبيته وأبناء عمومته . وقرر الخروج للقاء أعدائه وهو يقول : « انما هى رقدة وأبعث الى الحساب » . وخرج وصار يقاتل حتى قتل فى منتصف شهر ذى الحجة سنة ١٥٤ هـ (نوفمبر سنة ٧٧١ م) .

وكان يزيد بن حاتم المهلب مقـربا للخليفة ، معـروفا بالشجاعة والاقدام بما يفوق قريبه عمر بن حفص . كان يزيد واليا على مصر فعهد اليه المنصور بالمسير الى المغرب فقام اليها فى جيش بلغت عدته ستين ألف رجل من مختلف بلاد المشرق الاسلامى . وبعد مقاومة شديدة استطاع تذليل كل ما صادفه من عقبات حتى دخل مدينة القيروان فى جمادى الآخرة سنة ١٥٥ هـ (مايو سنة ٧٧٢ م) . واستتب له الأمر وقضى على العصاة وعلى كل أسباب الفتن والثورات . وساد السلام تلك الولاية أكثر من خمسة عشر عاما ، منذ خلافة المنصور وطوال عهدى المهدى والهادى وبعض خلافة الرشيد . واتسع المجال أمام يزيد للقيام بالأعمال الانشائية فى تلك البلاد ، وازدهرت القيروان ، وعم فيها الرخاء وانتظمت اقتصادياتها ورتبت الأسواق فيها ونسقت بحيث خصص لكل نوع من أنواع السلع موضع معين من السوق .

وكان يزيد فى جوده وكرمه مضرب الأمثال ، فأصبحت دار الامارة فى القيروان ملتقى الشعراء الذين قصدوا اليها من كل مكان ، وكذلك العلماء والفقهاء والقضاة والزهاد ورجال الصلاح

والتقوى • وبذلك احتلت مدينة القيروان مكان الصدارة بين مدن الغرب لا بوصفها العاصمة السياسية للبلاد فحسب بل وبصفتها العاصمة الفكرية ومركز الاشعاع الدينى والثقافة فى البلاد •

وقد دخلت اليها فى هذا الوقت المبكر آراء مذهب مالك ابن أنس الفقهية ، اذ كان مالك فى ذلك الوقت يلقى محاضراته فى مسجد المدينة المنورة ، وكان من بين مستمعيه كثير من طلاب العلم والحجاج والمغاربة والأندلسيين الذين نقلوا ما سمعوه الى بلادهم ، علاوة على هجرة الكثيرين من المشارقة الى المغرب ، فكان ذلك بداية دخول المذهب المالكى الى المغرب . ومن أروع ما قيل فى هذه المناسبة ان يزيد سأل ابن فروخ أحد هؤلاء الفقهاء المعروفين عن دم البراغيث فى الثوب هل تجوز به الصلاة ؟ فأجاب بالجواز ، ولكنه أضاف الى ذلك قوله : « يسألوننا عن دم البراغيث ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التى تسفك .. » .

وتوفى يزيد بن حاتم فى خلافة الرشيد فى رمضان سنة ١٧٠ هـ (فبراير ٧٨٨ م) . فعادت بعد موته اضطرابات الخوارج بعد أن دان الحكم لآل المهلب حوالى ربع قرن . وصارت الأحوال فى افريقية بين أخذ ورد ، واستقرار واضطراب ، حتى أراد الرشيد أن يضع حداً لهذا العصيان وهذه المشاغبات والثورات فأرسل أحد كبار القواد ممن عرف بحسن بلائه فى خدمة الدولة وهو يقطين بن موسى وعهد الى هرثمة بن أعين

بالولاية على المغـــرب ، فدخل القـــيروان فى ربيع آخر سنه ١٧٩ هـ (يونيه سنة ٧٩٥ م) . واستمرت ولايته لتلك البلاد عامين ونصف عام مرت كلها فى أمن وسلام . ولكن هرثمة طلب الى الرشيد اعفاءه من تلك الولاية لما رآه من اختلاف أهل افريقية وسوء طاعتهم . فعهد الرشيد بولاية افريقية الى محمد ابن مقاتل أحـــد كبار رجال الدولة وأخيه فى الرضاعة . ولم تزد ولاية ابن مقاتل على ثلاث سنوات ، عادت الأحوال بعدها الى الاضطراب ، واختلت شئون الجند . وظل أمر افريقية غير مستقر حتى اضطر محمد بن مقاتل الى الخروج من القيروان .

وتدخل فى الأمر ابراهيم بن الأغلب ، وكان فى مرتبة كبيرة بين قواد الجيش ، فدخل العاصمة ، وقصد الى المسجد مباشرة « وأعلن من أعلى المنبر أنه أتى لنصرة محمد بن مقاتل والى أمير المؤمنين الشرعى » . وتمكن ابراهيم بن الأغلب من القضاء على كل الثروات وعلى من كانت تحدثهم أنفسهم بالعصيان واثارة الفتن ، فاستقرت الأمور . وقدر الرشيد له حسن بلائه فى سبيل حفظ هيبة الخلافة فى افريقية فعهد اليه بالولاية بدلا من ابن مقـــاتل . وكان ذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ . (يولية ٨٠٠ م) .

ملوك الأغالبة وزرياب

كانت ولاية ابراهيم بن الأغلب بداية عهد جديد بالنسبة لافريقية ، اذ توارث أبناؤه من بعده حكم البلاد . وأسسوا أسرة ملكية جديدة فى المغرب تدين للخلافة شكلا وتتمتع بالاستقلال فعلا . ويعتبر ابراهيم بن الأغلب مؤسس تلك الدولة الافريقية . وكان والده الأغلب بن سالم من جند مصر الذين دخلوا افريقية فى قوات محمد بن الأشعث . وعهد اليه المنصور بولاية افريقية فى أواخر سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) . ومات بضربة سهم بعد ذلك بعامين .

وكان ابراهيم حين مات والده لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وقد قضى صباه فى مصر ، وحصّل علومه بالفسطاط . وكان يحضر فقيه مصر الأشهر « الليث بن سعد » ، وقد تنبأ له لما تميز به من الصفات فقال عنه : « ليكونن لهذا الفتى شأن » . وقد وهب له « الليث بن سعد » الفقيه « جلاجل » أم ابنه زيادة الله الذى ستأتى سيرته مع زرياب . وعندما بلغ ابراهيم مبلغ الشباب دخل فى جند مصر ، وكان عليه أن يسير الى المغرب مثل والده ، فرحل اليها تاركا أهله . وسرعان ما نراه فيها قائدا من كبار القواد . وبعد أن عهد الرشيد اليه

بولاية افريقية رسخت قدمه وثبت مركزه فى البلاد ، حتى انه بعد وفاة الرشيد ترك الأمين افريقية له وأقره على ولايتها .

واذ أن خروج زرياب من بغداد كان فى حياة الرشيد أو قبيل وفاته (١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) . مما يؤكده استفساره عن زرياب واجابة اسحاق الموصلى له تلك الاجابة التى أخذناه بها ، من وصمه زرياب بالجنون والاخبار عن سفره غاضبا ، فان ذلك كله مما يوضح أن قدوم زرياب للقيروان كان فى أواخر عهد ابراهيم بن الأغلب وكان زرياب فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمره .

وعندما توفى ابراهيم فى شهر شوال سنة ١٩٦ هـ . (يولية سنة ٨١٢ م) عهد بالامارة لابنه عبد الله الذى كان واليا على طرابلس . فحضر الى القيروان وقد أخذت له البيعة من أفراد الأسرة ومن كبار القواد دون الحاجة الى موافقة الخليفة .

وتوفى عبد الله فى سنة ٢٠١ هـ (٨١٧ م) . ليخلفه أخوه زيادة الله « وبذلك تأكد حكم افريقية للاغالبة وأصبحت ملكية وراثية لا تربطها بالخلافة الا روابط رقيقة » .

ولى زيادة الله بن ابراهيم وكنيته أبو محمد بعد أخيه عبد الله . وكان أبوه ابراهيم بن الأغلب اذا قدم عليه أحد علماء العربية من الأدباء أو الشعراء أصحبهم ابنه زيادة الله وأمرهم بملازمته ، فكان أفضل أهل بيته وأفصحهم لسانا وأكثرهم بيانا ، وكان يعرب كلامه ولا يلحن .

وله فى النسب :

بالله لا تقطعن بالهجر أنفاسى
فأنت تملك انطاقى واخراسى

صدود طرفك عن طرفى اذا التقيا
يجرعنى كأس ارغام واتعاس

لو لم أبحك حمىَ قلبى ترود به
لم تستبح مهجتى يا أملح الناس

وله أيضا فى تفاحة :

ولابسة ثوب اصفرار بلا جسم
تنم بأنفاس الحبيب لمشتم

تجمع معشوق لديها وعاشق
فذو نظر يرنو اليها وذو شم

سأفنيك أو أفنى عليك تذكرا
لمن أفت عطر منه فى الرشف واللثم

فقد هجت فى قلبى لظى لتذكرى
وعنوانه فى مقلتى دمعة تهمى

كأنى أدنى حين أدنيك من به
أثرت اشتياقى فى عناق وفى ضم

وما كاد زيادة الله يتولى الملك حتى جدد بناء جامع القيروان بالآجر والرخام ، وبنى المحراب كله بالرخام من أسفله الى أعلاه ، وزانه بنقوش عجيبة يقول كل من رآها من

أهل المشرق والمغرب انه لم ير مثلها . ويروى أن زيادة لله قال بعد أن فرغ من تجديد الجامع : « لا أبالي ما قدمت عليه يوم القيـــامة وفى صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان ، وبنيانى قنطرة أم الربيع ، وبنيانى مدينة سوسة ، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قاضى افريقية » .

ومن شعر زيادة الله ما يروى من أن المأمون كتب اليه أن يدعو على منابره لعبد الله بن طاهر بن الحسين فأنف من ذلك ، وأمر بادخال الرسول عليه ، بعد أن تملأ من الشراب ، وحل شعره ، ونار عظيمة بين يديه فى كوانين وقد احمرت عيناه . فهال الرسول ذلك المنظر ثم قال :

« قد علم أمير المؤمنين طاعتى له ، وطاعة آبائى لآبائه ، وتقدم سلفى فى دعوتهم ، ثم يأمرنى الآن بالدعاء لعبد خزاعة ؟ هذا والله أمر لا يكون أبداً » .

ثم مد يده الى كيس الى جانبه فيه ألف دينار فدفعه الى الرسول ليوصله الى المأمون ، وكانت الدنانير مضروبة باسم « ادريس الحسنى » ليعلمه ما هو عليه من فتنة المغرب ومناضلة العلويين . وكتب جواب الكتاب وهو سكران فى آخره أبيات منها :

أنا النار فى أحجارها مستكنة

فان كنت ممن يقدح الزند فاقدح

أنا الليث يحمـــى غيله بزئـــيره

فان كنت كلباً حان موتك فانبـــح

أنا البحـــر فى أمواجه وعبـــابه

فان كنت ممن يسبح البحر فاسبح

فلما صحا ، بعث فى طلب الرسول ، ففاته . وكتب كتابا آخر يتلطف فيه فوصل الكتاب الأول والثانى معا ، فأعرض الخليفة عن ذكر الأول وجاوبه عن الثانى بما أحب . ولعل سبب هذا التسامح من قبل المأمون أن زيادة الله كان سباقا بالوفاء للمأمون ، يضاف الى ذلك ندم زيادة الله على ما كتب أولا . وللمأمون من عمق التفكير ما يجعله أهلا لمثل هـــذا التصرف الحكيم .

وكان زيادة الله على غير ما اعتـــاد سابقوه الذين كانت تشغلهم الحروب المتواصلة كما أوضحنا . فاعتاد مجالس الطرب وحب الغناء . وقد وجد هذا الميل فيه من يغذيه ويزيده شغفا به وهو زرياب .

فان زرياب منذ نزل عند ملوك الأغالبة ذاع صـــيته فى جميع ولاية افريقية ولم تنقض السنوات الأولى على اقامته بالقيروان حتى تحول جزء من هذه المدينة الى منطقة تخصصت للملاهى والترف ، وكانت القيروان من قبل لا تعرف بغير الزهد والصلاح والاغراق فى التدين . وقد مال بعض أهلها الى المرح والاشـــتغال بالموسيقى والغنـــاء والرقص وما اليها من فنون

التسلية ، وانغمس فريق منهم فى هذه الملاهى وخصصت لها الدور والمحال العامة ، حتى اقسمت المدينة الى حيين متناقضين عرف أحدهما باسم « الحى الزريابى » وعـرف الآخر باسم حى « الزهاد » .

وأصبح هذا الحى الزريابى مجمعا لفنانين ومغنين ، اتخذوا من زرياب مرشـداً واماماً ، نذكر منهم مؤنسا المغنى . وقد سأله الملك يوما هل يعلم لحنا من ألحانه لم يسمعه منه ؟ فأجاب : والله يا مولاى ما علمت غير بيت وقد أنسيت أوله . وقال : هاته فغناه :

. . . .

فقد صرت بعد البين أقنع بالهجر

فكتب الملك الى عبد الله بن الصائغ ، وكان شاعراً مجيدا ، وصار وزيرا فيما بعد وقال له : بحياتى الا زدت عليه شيئا . فقال ابن الصائغ :

ولى كبد لولا الأسى لتصـدعت
وقلب أبى أن يستريح الى الصبر
وقد كنت أخشى هجرهم قبل بينهم
فقد صرت بعد البين أقنع بالهجر

فأعجب الملك ذلك ووقع منه أحسن وقع . وغنى به مؤنس ، فأمر له بخلع نفيسة وكيس فيه ألف دينار وفرس بسرج ولجام محليين .

* * *

واذا كان هذا نوع ما يخلع على أحد تلاميذ زرياب من العطايا والمنح فماذا عساه أن يكون نصيب زرياب منها ؟

الحق أن زرياب عاش هو وأهله فى القيروان عيشا رغدا وحياة مطمئنة حتى غنى يوما بحضرة الملك أغنية تمدح فيها بالسواد فى قول عنترة :

فان تك أمى غرابية   من أبناء حام بها عبتنى
فانى لطيف ببيض الظبا   وسمر العوالى اذا جئتنى
ولولا فرارك يوم الوغى   لقدتك فى الحرب أو قدتنى

فغضب زيادة الله ، وصبّ عليه جام نقمته ، وأمر بضربه ثم ابعاده . وقال له ان وجدتك فى شيء من بلدى بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك . فكان لا محيص له أن يترك القيروان كما ترك بغداد .

ويبدو لنا أن زهو المبدعين والفنانين ، واعجابهم بأنفسهم ، وغرورهم بمواهبهم ، قد دفع زرياب الى مثل هذا المسلك الذى كانت له أسوأ العواقب . كما أننا من ناحية أخرى لا نخلى تصرف زيادة الله من شذوذ قد نستطيع أن نستخلص بعض نواحيه بما حدث منه فى معاملة رسول المأمون ، واستقباله فى حالة شذوذ غير لائق بملك كبير ، وكتابته خطابا سيىء اللهجة ثم يتبعه بخطاب آخر مناقض له .. والذين استبعدوا وقوع تصرف هذا الملك مع زرياب لو لاحظوا الحالة النفسية السريعة الانفعال عند هذا الملك ، لم يستكثروا عليه هذا التهجم وهذه

المعاملة التابية لهذا الموسيقار العبقـرى الذى لم يكن له فى افريقيا كلها من يماثله أو يدانيه .

* * *

وهكذا انتهت اقامة زرياب فى القيروان الى تلك الخاتمة القاتمة . ولكن — رب ضارة نافعة — فقد شاءت الأقدار قبل أن يخبو هذا الصوت الصادح الذى ملأ أرجاء القيروان بحلو النغم أن ينبعث صداه فى أرجاء أوسع وأشمل .

ففى تلك اللحظات اليائسة البائسة من لحظات زرياب قدم الى القيروان منصور المغنى اليهودى مبعوثا اليه من الأندلس من قبل الحكم الأول ، موجها اليه الدعوة للحضور الى بلاط قرطبة .

وهكذا توصد الأقدار أمام زرياب نافذة من نوافذ النجاح فى القيروان لتفتح له فى عاصمة الأندلس أوسع أبواب الشهرة وذيوع الصيت ، وليسجل له التاريخ فيهـا أروع صفحات الخلود ..

فالى الأندلس ....

الفصل الخامس

أضواء الأندلس

- الفنان فى قرطبة ...
- حساد وحاقدون ...

وليس فى غيرها بالعيش منتفع
ولا تقــوم بحق الأنس صــهباء
وكيف لا يذهب الأبصارَ رونقها
وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضــة ، والمسك تربتهــا
والخز روضــتها والدر حصــباء
وللهــواء بهــا لطف يرق به
من لا يرق وتبــدو منــه أهواء

هذه هى الأندلس فى منطق الشعر وموسيقاه ، مناظرها وروعة جمالها أما أهلها فمما جاء فى وصفهم من العرب والبرابرة :

« صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادة ، وشعورهم سود مرسلة ، وقدودهم متوسطة معتدلة الى القصر ، وألوانهم زهر مشربة ، وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها اعراب كثير ، ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشى بينهم الملف المصبوغ شتاء فتبصرهم فى أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة ، وأنسابهم العربية ظاهرة ... ومواسمهم متوسطة ، وأعيادهم حسنة مائلة الى الاقتصاد ، والغنى بمدنهم فاش ، وقوتهم الغالب البر الطيب عامة العام وربما اقتات فى فصل الشــتاء الضعفة

والبوادى والفعلة فى الفلاحة الذرة العربية . وفواكههم اليابسة متعددة يدخرون العنب سليما من الفساد الى شطر العام ، الى غير ذلك من التـين والزبيب والتفاح والرمان والقسـطل (أبو فروة) والجوز واللوز الى غير ذلك مما ينفد ولا ينقطع الا مدة . وصرفهم (نقودهم) فضة خالصة وذهب ابريز ... فى شق من نقودهم الفضة « لا اله الا الله » وفى شق « لا غالب الا الله » . ودينارهم فى شق منه « قل اللهم مالك الملك .. الى بيدك الخير » ، ويستدير به قوله تعالى « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » ، وفى شق اسم الأمير ويستدير به « لا غالب الا الله » .

« وعادة أهل المدينة البروز فى الفحوص بأولادهم وعيالهم ... وحريمهم حريم جميل ، موصوف بالحسن ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور وطيب النشر وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة . وكان يغلب على الحرائر من النساء الحجاب ، ولكن يتسامح فى هذا مع الاماء والسرارى .. واشتهر الأندلسيون بالنظافة ، فكانوا يفضلون الملبس والمأكل البسيط على الملبس والمأكل الفخم اذا كان قذرا . واعتادوا أن يسيروا فى الطرقات ورءوسهم عارية ، الا ما شذ فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم ممن كانوا يلبسـون العمائم . وكان من عاداتهم أن يلبسوا البياض عند الحداد ..

يقولون البياض لبـاس حزن
بأندلس فقلت من الصـواب
ألم ترنى لبست بيـاض شعرى
لأنى قـد حزنت على الشـباب

« وأهل الأندلس أكثر الناس محافظة على الشعائر الدينية وقد تأثروا فى ذلك بمذهب مالك فى الشدة والعصبية . وهم أكره ما يكونون للتسول ، لا يطيقون رؤية شخص صـحيح الجسم قادراً على العمل وهو يتسول » .

أما قرطبة فكانت أعظم البلاد وسط الأندلس . وليس لها فى المغرب شبيه فى كثرة الأهل وسعة الرقعة . وقيل انها تبعد عن البحر مسيرة خمسة أيام . وكانت مركز العلوم ومنار التقى يتحلى أهلها بشريف المناقب وجميل الصفات ، وقد قالوا عنهم : « انهم أعلام البلاد ، وأعيان العباد . ذكروا بصـحة المذهب وطيب المكسب ، وحسن الزى فى الملابس والمواكب ، وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ، وجميـل التخصص فى المطاعم والمشارب » .

وسنرى فيما يلى أنه كان لزرياب الفضل الأول فى كثير من كل تلك المناقب والصفات .

* * *

كانت الأندلس منذ الفتح ولاية تابعة للخلافة الأموية فى دمشق . وظل الحال كذلك حتى سقطت دولة بنى أمية ، وتعقبهم

الخليفة العباس السفاح بالقتل والتشريد وتمكن عبد الرحمن ابن معاوية (حفيـد هشام بن عبد الملك) من الهـرب الى الأندلس . وانتهز فرصة الخلاف الواقع بين ولاة العرب فتغلب عليهم ، فبايعه الناس بالامارة . وجعل قرطبة عاصمة ملكه . وقد لقب فيها بعبد الرحمن الداخل ، كما لقب بصقر قريش .. وطالت مدة خلافته (١٣٨ هـ/٧٥٥ م ـــ ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م) .. فاستطاع أن يؤسس دولة ثابتة الأركان ، يؤيدها جيش قوى ، عرفت باسـم « الدولة الأموية فى الأندلس » . واهتم بنشر الاسلام والمحافظة عليه ، وأنقذه من التأثر بمنازعات ولاة العرب قبله . كما اهتم بتعليم اللغة العربية لأهل تلك البـلاد ونشر ما تضمنته من ثقافة اسلامية .

... وكان عبد الرحمن ومن جاء بعده من أمراء تلك الدولة الأموية وخلفائها مشـغوفين بالشـعر على مألوف طبيعتهم ، وبالفنون الجميلة بصفة عامة . وكان هو نفسه يقول الشعر بين الحين والحين .

ومن شعره وقد رأى نخلة برصافته فى قرطبة :

تبدت لنـا وسط الرصـافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغـرب والنوى
وطول اكتئابى عن بنىّ وعن أهلى
نشأتِ بأرض أنت فيهـا غريبـة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى

... ومن شعره أيضا يتشوق الى أخته فى الشام :

أيهـا الراكب الميـــمم أرضى
أقر منى بعض الســلام لبعـضى
ان جســمى كما عــلمت بأرض
وفـــؤادى ومالكيــه بأرض
قـــدّر البين بيننـــا فافترقنـــا
وطوى البين عن جفــونى غمضى
قد قضى الله بالفــراق علينـــا
فعسى باجتماعنـــا ســوف يقضى

ولى الملك بعــده ولده هشــام (١٧٢ هـ / ٧٨٨ م — ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م) وكان أيضا مشغوفا بالشعر . دخل عليــه رجل فى حياة أبيه عبد الرحمن — وهو مرشــح للخلافة — فعرض عليه شراء ضيعة خصبة الأرض ناعمــة مثمرة . فأبى هشام عليه ذلك ، وأطرق قليلا ثم قال :

البذل — لا الجمع — فطرة الكرم
فــلا ترد بى ما لم ترد شـــيمى
ما أنا من ضــيعة وان نعــمت ؟
حسبى اصطناع الأحــرار بالنعم
ملك الورى ، والعبــاد قاطبة
— لاملك بعض الضياع — من هممى
تفيض كفى فى السلم بحــر ندى
وفى ســجال الحــروب بحــر دم

تــزل عن راحتى البــدور ، وما
تمســك غــير الحســام والقلم

وحين تولى هشام الحكم كانت قد ظهرت المذاهب الفقهية بين المسلمين وتحول أهل الأندلس الى مذهب مالك ، حتى لقد اختار هشام جميع القضاة وأصحاب الوظائف الدينية فى دونته من الفقهاء المالكيين . فكان ذلك من عوامل انتشار هذا المذهب وثبوت قدمه فى الأندلس . وكان لهذا المذهب وأصحابه أثر كبير فى توجيه الثقافة الأندلسية بسبب ما اتصف به من عداء لكل تجديد مما أثار الفتن والمنازعات . فقد بلغ من تشــدد طائفة من هؤلاء الفقهاء المتزمتين فى قرطبة فى عهد الحكم بن هشام (١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ــ ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) أن دعت الى تحريم الاستماع الى الموسيقى والغناء وبطلان شهادة محترف هــذا الفن ، فلا تقبل شهادة المغنى أو المغنية أو النادية . وأحلت كسر ما يمكن أن يرى مع النــاس فى طرقات المدينــة من الآلات الموسيقية ، كما أفتت بتحريم الاتجار فى أدواتها . ولم تسمح بأن تباع كتب الموسيقى والأغانى علنــا . وكان من أثر ذلك ما رواه ابن خلدون حيث قال :

« حينما كان يموت عالم فى اشبيلية ويراد أن تباع كتبه بثمن عظيم ترسل الى قرطبة ، وان مات موسيقى فى عاصمة الأندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية ومخطوطاته الى اشبيلية التى ولع أهلها بالموسيقى أشد الولع » .

غير أن هذه الحال لم تدم طويلا . فقد غالى هؤلاء الفقهاء

فأنكروا على « الحكم » نفســه اقباله على الصــيد ورموه بالاغراق فى اللهو وبالاستهتار والخروج على تعاليم الدين . وعابوا عليــه أنه لا يستشيرهم فى تسيير أمور الدولة ، كما ساءهم أنه لم يكن لهم فى نفسه تقدير كبير . حتى لقد حاول نفر من هؤلاء الفقهاء تأليب الناس عليــه ، مما اضطر الحكم ــ وكان شديد الحزم ــ الى اراقة الكثير من الدماء فى وقعة « الربض » الشنعاء ، خشية انتشار تلك الفتنة . وقتل من أهلها خلقا كثيرا . وصلب ما يزيد على السبعين من هؤلاء الفقهاء وأتباعهم ، وفى بعض الروايات أكثر من ثلاثمائة .

وكان الحكم فنانا بطبعه ، شاعرا بسليقته ، يحب الموسيقى والشعر . وكان فى بلاطه من أعلام الموسيقى علون وزرقون [1] . وهما أول من دخل الأندلس من الموسيقيين . وهو الذى أرسل فى طلب زرياب من القيروان . ولكن الحكم توفى والفنان فى الطريق اليه كما سيأتى ذكره فيما بعد .

وقد ورث الحكم ملكة الشعر وعشق الفنون عن أبيــه وجده . ومن شعره بعد أن أخمد ثورة أهل ربض قرطبة :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعا
وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعــا

---

(1) مما يدل على احتفاظ العرب بأمجادهم ما شاهدته فى مدينة تونس . فقــد أثلج صدرى أن أرى معهد الموســيقى بها فى شارع أطلق عليه : « نهج زرقون » .

فسائل ثغوري : هل بهـا الآن ثغرة
أبادرها مستنضي العـزم دارعا
وشافه على الأرض الفضــاء جماجما
كاقحاف شريان الهبيـد لوامعـا
تنبئك أني لم أكن عن قراعـهم
بوان ، وأني كنت بالسـيف قارعـا
فاني اذا حـادوا جـزاعا عن الردى
فلم أك ذا حيـد عن الموت جازعـا
حميت ذماري وانتهكت ذمارهم
ومن لا يحامي ظلّ خزيان ضـارعا
ولمـا تسـاقينا سجال حروبنـا
سقيتهم سمـا من الموت ناقعـا
وهل زدت أن وفيتهم صـاع قرضهم
فوافوا منـايا قـدّرت ومصـارعا
فهاك بلادي انني قد تركتهـا
مهاداً ولم أترك عليهـا منـازعا

وله في النسيب :

ظـل من فرط حبـه مملوكا
ولقـد كان قبـل ذاك مليكا
ان بكى ، أو شكا الهوى ، زيد ظلما
وبعـاداً يدني حمـاماً وشيكا

تركتـــه جآذر القصر صــبا

مستهاماً على الصــعيد تريكا

يجعل الخــدّ واضـــعاً فوق ترب

للذى يجعــل الحــرير أريكا

هكذا يحسن التذلل فى الحب

اذا كان فى الهــوى مملوكا

* * *

وحين تولى الملك خليفته عبد الرحمن الثــانى المعروف بعد الرحمن الأوسط (٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ــ ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) كانت البلاد قد أحكم نظامها ، واطمأنت النفــوس واستقرت الأمور فى نصابها . وتهيأ الجو للتطور بالثقافة الأندلسية وبزوغ شمس النهضة الموسيقية فى تلك البلاد ، لا سيما وقد عرف عبد الرحمن بشدة شغفه بالغناء ، كما كان هو نفســه كذلك شاعرا بالسليقة .

وهنا دقت البشائر ايذاناً بقرب وصول الموسيقار العربى الأول الى العاصمة .

* * *

الفنان فى قرطبة :

فى أواخر عام ٢٠٦ هـ /٨٢١ م [1] رحل زرياب من مدينة القيروان فى صحبة منصور المغنى رسول الحكم اليه قاصدين الأندلس . وقد سارا براً الى أن وصلا ميناء « سويتا » فى شمال بلاد المغرب ، وعبرا « بحر الزقاق » الى جبل طارق . وما كادت قدم زرياب تطأ أرض الجزيرة الخضراء حتى بلغه نبأ وفاة الحكم . فاغتم لسوء حظه ونكد طالعه . وهمّ بالرجوع ، اعتزازا بكرامته غير مبال بما سيعانى هو وأسرته من محنة ، فلم يبق له فى شمال افريقية مكان ولا فى بغداد مقام .

ولكن منصور رغبه فى متابعة الرحلة الى عبد الرحمن ابن الحكم الذى تولى الملك بعد أبيه . وكتب اليه يخبره بقدوم زرياب . فجاء كتاب عبد الرحمن يذكر تشوفه للقائه وسروره بمقدمه . وكتب الى جميع عماله يوصيهم باكرامه ، وأن يحسنوا استقباله ويوصلوه بالتوقير من بلد الى بلد حتى يدخل

---

(١) ورد فى تاج العروس جـ ١ ص ٢٨٦ أن تاريخ دخول زرياب الاندلس كان عام ١٣٦ هـ . وعنه اخذ مصححو الاغانى فقد ورد فى جـ ٤ ص ٣٥٤ (طبعة الدار) ما نصه :

« زرياب هو على بن نافع المغنى مولى المهدى ومعلم ابراهيم الموصلى . صار الى الشام ثم صار الى المغرب ، الى بنى امية ، فقدم الاندلس مع عبد الرحمن الاوسط سنة ١٣٦ هـ فركب بنفسه لتلقيه كما حكاه ابن خلدون » .

وواضح اضطراب هذه الرواية ، فابراهيم الموصلى هو معلم زرياب وليس العكس . كما ان قدومه للأندلس كان عام ٢٠٦ هـ كما أوضحنا وليس عام ١٣٦ كما روى مصححو الاغانى وتاج العروس ..

قرطبة . وأمر غلمانه أن يتلقوه بالركائب وبما عساه أن يكون فى حاجة اليه .

ثم خرج عبد الرحمن لاستقباله بنفســه بظاهر المدينة . فدخل زرياب وعياله البلد بليل صيانة لحرمه . وأنزل فى دار من أحسن الدور تهيأت له فيها وسائل الراحة وكل ما يحتاج اليــه .

وبعد ثلاثة أيام استدعاه عبد الرحمن اليه ، وكان قد كتب له راتبا فى كل شهر مائتى دينار ، وأن يجرى على أبنائه الأربعة الذين قدموا معه وهم عبد الرحمن وجعفر وعبد الله ويحيى عشرين ديناراً كل شهر لكل واحد منهم . وذلك زيادة عما قرر منحة لزرياب على سبيل التكرمة من الأموال العامة ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد ألف دينار ، ولكل مهــرجان ونوروز خمسمائة دينار وأن يمنح من هيئة التغذية العامة ثلاثمائة مدى [1] ؛ ثلثاها شعير وثلثها قمح . وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار .

فلما استدعاه الخليفة الى مجلسه ، بعد أن أرضاه وطابت نفسه الى المقــام وأمن تصــاريف الدهر وكيد الكائدين ، بدأ بمجالسته وسماع غنائه ، وقد أذن له بالشراب . فغنى زرياب وجاوب على الشراب بما يفوق الشراب من صنعة ساحرة وفن

---

(١) المدى : وزان قفل ، مكيال يسع تسعة عشر صاعا .

مبدع ، مما جعل الخليفة يزداد به تعلقا وله حبا ، ويؤثره بالحظوة على جميع المغنين [1] .

وذاكر زرياب الخليفة فى أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء ، فكان بحراً لا يدرك مداه ، مما أعجب الخليفة فزاد فى تكريمه . واختصه بمجالسته على مائدة طعامه . وبالغ فى الاعتزاز به ، حتى فتح له بابا خاصا يستدعيه منه متى أراد سماعه .

وذكروا هنا أيضا أن زرياب ادعى أن الجن كانت تتقمصه فى نومه كل ليلة وتعلمه ما بين لحن أو وصلة كاملة من الغناء ، فكان يهب من نومه سريعا ، فيدعو بجاريتيه « غزلان » و « هنيدة » فيأخذان عودهما ويأخذ هو عوده ، فيطارحهما ليلته ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجلا الى مضجعه .

وفى رأينا أن الرواية على هذا النحو ليست بمستحيلة ولا غير متصورة . فان الفنان الحق تغلب عليه فطرته فى يقظته ، وتقض مضجعه اذا نام . فتتسلسل الأنغام فى عقله الباطن وتتمثل له فى الرؤيا . فاذا استيقظ وعاها وحفظها ... وهكذا الفنان يلازمه

---

(١) يذكرنا هذا بفنان من نوع آخر هو ابن هانىء الأندلسى (٣٢٠ هـ ـ ٣٦٢ هـ) وان كان أمر الفنانين يختلف اختلافا واضحا . فزرياب موسيقى هاجر من بغداد الى الأندلس ، وابن هانىء أندلسى هاجر منها الى القيروان لتكون طريقه الى مصر . وكلاهما خرج من بلده مضطهدا . غير أن زرياب نال الحظوة عند الأمويين فى الأندلس ، أما الثانى فبعد أن أكرمه المعز لدين الله الفاطمى واقام له قصراً فى القيروان راغبا فى الافادة منه عندما يتولى أمر مصر ، ليكون له لسان الدعاية طبقا لعرف زمانه ، وقد استأذنه ابن هانىء فى التأخر عنه قليلا ، فانه (ابن هانىء) حين بدأ الرحلة من القيروان الى مصر قتل فى برقة بدسيسة أموية خشية أن يقوم فى مصر بدعاية شعبية للفاطميين .

فنه ، ويتملكه فلا يبارحه أبداً ، يستيقظ به ولا ينام عنه ، فهو مستيقظ حتى فى نومه .

وأياً كان الأمر ، فليست تلك الحال على النحو الذى وصفها به اسحاق للرشيد حين سأله عنه ، من أنه يصاب أحيانا بنوع من الجنون لا يأمن معه مجالسوه على أنفسهم من الفزع والأذى . بل انها حال معقولة يمكن أن تتصور وليست كتلك القصة التى رواها اسحاق عن أبيه ابراهيم ومنادمة الجن له وتعليمهم اياه ضرب « الماخورى » مما يبدو رواية طويلة تخيلية من تأليفه وتلحينه واخراجه !!! .

ولم تقف مواهب زرياب عند اجادة الغناء والمهارة فى العزف بل تخطت ذلك الى تحسين صناعة العود ، كما كانت تبشر بذلك فطنته العجيبة التى تجلت حين غنى بين يدى الرشيد . فهو الذى زاد بالأندلس الوتر الخامس فى العود اختراعا منه ، وكانت من قبل أربعة وفقا لمقتضيات الصنعة القديمة التى تحتم وجود المناسبة العددية بين أوتار العود الأربعة وبين الطبائع الأربع ، وتقابل بينها [1] . وقد رأى زرياب ، استكمالا لمجموعة النغمات

---

(١) جاء فى مخطوطة « رسالة الكندى فى أجزاء خبرية للموسيقى » التى قام مؤلف هذا الكتاب بتحقيقها والتعليق عليها ، شرح مفصل لمشاكلة أوتار العود الأربعة لأرباع الفلك ، وأرباع الشهر ، وأرباع اليوم ، وأرباع البروج ، وأرباع القمر ، وأركان العناصر ، ومهابّ الريح ، وفصول السنة ، وأركان البدن ، وأرباع الأسنان ، وقوى النفس المنبعثة فى البدن وأفعالها الظاهرة فى الحيوان .

وهذه المقابلة كان يلتزمها جميع كتاب العرب وفلاسفتهم فى العصور الوسطى . ولكن زرياب خرج على هذا الالتزام ولم يتقيد به ، بل ساير مقتضيات الموسيقى من ضرورة ايجاد الوتر الخامس حتى تكمل الطبقات الصوتية فى العود . وان التزم فى ذلك ادماج هذا الوتر ضمن هذه الطبائع .

المستخرجة من العود لتستوفى الطبقات الصوتية به ، ضرورة اضافة وتر الى أوتاره الأربعة القديمة ، فزاد عليها وترا خامسا صبغه باللون الأحمر ، وجعله متوسطاً فى موضعه بين الأوتار الأربعة . وذلك أن « الزير » وهو أكثر أوتار العود حدة كان يصبغ باللون الأصفر ليكون فى العود بمنزلة الصفراء فى الجسد . وصبغ الوتر الثانى بعده باللون الأحمر وهو من العود بمنزلة الدم من الجسد ، وهو فى الغلظ « ضعف الزير » ويسمى « المثنى » . وصبغ الوتر الرابع باللون الأسود وجعل من العود بمنزلة السوداء من الجسد وسمى «البم» وهو أغلظ أوتار العود وأعلاها من حيث الوضع ، وهو ضعف « المثلث » الذى عطل من الصبغ وترك أبيض اللون ليكون من العود بمنزلة البلغم من الجسد ، وجعل ضعف المثنى فى الغلظ فلذلك سمى « المثلث » . فهذه الأوتار الأربعة مقابلة فى عرف علماء تلك العصور للطبائع الأربع ، وتقضى طبائعها بالاعتدال . فيقولون « البم » حار يابس يقابل « المثنى » وهو حار رطب وعليه تسويته . « الزير » حار يابس يقابل « المثلث » وهو حار رطب وعليه تسويته . وهكذا قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه .

وأراد زرياب أن يظل فى اطار هذا التفكير عندما زاد وتره الخامس ، فقال ان أوتار العود الأربعة على النحو الذى جرى عليه العرف ان سايرت طبائع الجسد فانها عطل من النفس ، والنفس مقرونة بالدم . لهذا فقد أضاف الوتر الخامس وصبغه

باللون الأحمر أيضا ، وأسماه « الوتر الأوسط الدموى » ووضعه تحت « المثلث » وفوق « المثنى » ، فاستكمل فى عوده قوى الطبائع الأربع ، وقام الوتر الخامس بينها مقام النفس فى الجسد .

كذلك اخترع زرياب فى الأندلس مضراب العود (الريشة) من قوادم النسر ، وكانت لا تزال حتى وقته من الخشب . وهى فكرة بارعة من زرياب كان موفقا فيها الى أبعد مدى ، اذ تجمع الى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة الوتر بملازمة الضرب عليه .

وما كاد يستقر بزرياب المقام بقرطبة ويعيش فيها حياة مطمئنة هادئة ، حتى وجه عنايته لسائر الآلات الموسيقية فنقل الى الأندلس كل ما سبقت معرفته لبلاد المشرق العربى ، ثم أخذ يفتن فيها ويبتكر حتى توافر للأندلس ثروة من تلك الآلات لم يعرفه بلد قبله . فقد كان لديهم :

من الآلات الوترية : العود القديم ذو الأوتار الأربعة ، والعود الكامل ذو الأوتار الخمسة ، والشهرود ، والطنبور ، والقيثارة ، والمزهر ، والكنارة ، والقانون ، والنزهة ، والصنج ، والشقرة أو الشقير . ومن الآلات الوترية ذات القوس : الرباب على اختلاف أنواعها .

ومن آلات النفخ : المزمار ، والسرنا ، والسرناى ، والناى ، والشبابة ، واليراع ، والزملرة ، والقصبة ، والمقرونة ،

والموصول ، والصفارة . ومن الآلات النحاسية : البوق ، والنفير .

ومن آلات النقر : الدفوف ، والغربال ، والبندير ، والصنوج ، والكاسات ، والمصفقات ، والقضيب ، والنقارة ، والقصعة ، والطبل .

أما العبقرية الفذة التى جلت عنها موهبة زرياب فهى طريقته المبتكرة فى تعليم الغناء ، تلك الطريقة المستحدثة التى ظلت مثلا يحتذى فى الشرق والغرب حتى العصور الحديثة .

لقد كان المتبع قبل زرياب فى تلقين الألحان أن يكرر المعلم اللحن لطلابه حتى يحفظوه ، فاستعمل زرياب طريقته الجديدة ، فى تلقين الألحان لتلاميذه . فكان يسلك للوصول الى تلك الغاية ثلاث مراحل :

الأولى : تعليم الايقاع فى قراءة الشعر ، وأن ينقر التلميذ الدف ليظهر له زمن الايقاع ويضبط الحركات .

الثانية : دراسة اللحن فى شكله الساذج .

الثالثة : ترجيع الصوت مع حلية الغناء واظهار العواطف .

أما طريقته فى امتحان أصوات تلاميذه قبل البدء فى تعليمهم ، فكان يجلس الطالب على كرسى صغير ويصيح بصوت عال «يا حجام» أو يغنى قائلا « آه » ويرددها ممدودة على جميع درجات السلم الموسيقى . فان سمع صوته بها صافيا ، نديًا ، قويا مؤديا ، لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، قرر

صلاحيته للتعليم . مع تقدير درجة صوته من الحسن والجودة والقـوة .

فاذا اختار تلاميذه الموهوبين لقنهم الغنـاء بطرق فنية ، تختلف كل فئة منهم عن غيرها تبعاً لاختلاف طبيعة أصـوات أفرادها . فكان اذا بدأ الالقاء على تلميذ لتعليم الغناء أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمِسنورة [1] ، وأن يشد صوته جدا اذا كان قوى الصوت . فان كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة فان ذلك مما يقوى الصوت ولا يجد متسعا فى الجوف عنـد الخروج على الفم . فان كان ألص [2] الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسـنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فى فيه قطعة خشب عرضـها ثلاث أصابع يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فكاه .

وكان له فى أداء الغناء أسلوب خاص تبعه فيه معاصروه ومن جاءوا بعده من المغنين ، وقد اعتبروا هذا الأسلوب من التقاليد الواجب اتباعها . وذلك بأن يفتتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شـدوه بأى نقر كان ، ويأتى اثره بالبسـيط ، ويختم بالمحركات والأهزاج تبعا لمراسم زرياب

وأحسب أن زرياب كان أول عربى فكر فى تنفيذ التبادل الثقافى وتوجيه البعثات الفنية وفق مفهومنا العصرى حين وجه

---

(١) المسورة : متكأ كالمنبر .

(٢) الالص : المتقارب الاضراس .

عدداً من القيان المغنيات اللائى استدعاهن عبد الرحمن الأوسط ممن برعن فى هذا الفن بالمدينة ، وجرى اختبارهن فى مواسم الحج وقد تخرجن على أيدى أعلام الغناء فى الحجاز ودمشق ، بل منهن من أتمت تلك الدراسات فى بغداد . ثم ابتنى الخليفة فى قرطبة لهؤلاء الجوارى المشرقيات داراً خاصة أسماها « دار المدنيات » فكانت أول معهد للموسيقى فى الأندلس ، عميده زرياب وقد اتخذ من أبنائه وبناته وجواريه أساتذة لمساعدنه على تطوير فن هؤلاء المدنيات بما يحقق نهضة جديدة تناسب حياة الأندلس . وكان المنهاج الدراسى لهذا المعهد يشمل تعليم مختلف أنواع العزف ، والغناء ، والتلحين ، والشعر بسائر عروضه ، والرقص — وكان الاقبال عليه عظيما — يقصده الطلاب من كل فج ، العرب وغير العرب ، من الأندلس وخارجها . مما كان ذا اثر عظيم بالنهوض بفنون الموسيقى والشعر فى تلك البلاد التى امتد الكثير من فنها الى أوربا بما سنخصه بفصل آخر من هذا الكتاب .

وقد انبث أولئك الجوارى المشرقيات والكثيرات ممن تخرجن فى هذا المعهد يعلمن الأحرار من نساء الأندلس تلك الفنون فى حشمة ووقار . ولم تكن المرأة الأندلسية أقل شغفا بالغناء من أختها فى العراق أو الشام ، سيما وأن طبيعة تلك البلاد الساحرة كانت تضفى من جمالها ما يدعو الناس الى أسباب الأنس والطرب . لذلك سرعان ما وجدنا فى قرطبة من مجالس الغناء ما لا يقل عظمة وفخامة عن مجالس بغداد ، حتى لقد اشترك فى

أحد تلك المجالس الأندلسية مائتان من المغنين والمغنيات يضربن بمختلف الآلات من عيدان وطنابير ومزامير .

وبلغ من رقة عواطف أهل الأندلس أن أغرموا بالغزل ، واستعانوا عليه بحلو النغم فكنت تسمع فى كثير من الأحايين ، حين تمر بالليل صوت الغناء وأصداء الموسيقى تنبعث من جوانب الدور والقصور .

وكثرت مجالس الغناء والطرب والرقص مع مجالس الأدب . وتعددت أنواع وألوان تلك المجالس ، فكانت ندوات لاجتماعات أدبية شعرية غنائية ، تشدو فيها الجوارى المغنيات بمصاحبة مختلف الآلات . وكان النساء يحضرن تلك المجالس فى أكثر الحالات .

قال ابن حمديس يصف أحد هذه المجالس :

وعدنا الى هالة أطلعت
على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم
تثور فيقتل ثوارها
وقد سكّنت حركات الأسى
قيان تحرك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها
وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها
حساب يد نقرت طارها

وتحول بلاط عبد الرحمن الأوسط من الخشونة الى ترف قصور الحكام وأصحاب السلطان فى المشرق العربى ، وذلك بتوجيه زرياب وما أشاعه من أفانين الذوق وأساليب الظرف حتى أطلقوا عليه اسم « فيصل الأناقة فى بلاط عبد الرحمن » . وامتلأت القصور بالجوارى ، وقد اصطفى عبد الرحمن الأوسط من بينهن جاريته « طروب » فصارت حظيته التى لم يكن يطيق مغاضبتها . وقد أغضبها يوما فأغلقت حجرتها دونه ، ودون رسله اليها . ولم ير الى ترضيتها سبيلا الا سدّ الباب ببدر الدراهم من خارجه ، وطلب اليها أن تراجعه على أن تكون جميع الدراهم لها . فخرجت اليه مكبة على قدميه تقبلهما ، وأحرزت المال كله . وفيها يقول وقد طالت غيبته عنها فى احدى غزواته :

فقدت الهوى مذ فقدت الحبيبا
فما أقطع الليل الا نحيبا
اذا ما بدت لى شمس النها
ر طالعة ذكرتنى « طروبا »
ألاقى بوجهى سموم الهجير
اذا كاد منه الحصى أن يذوبا
وسرت الى الشرك فى جحفل
ملأت الحزون به والسهوبا
أنا ابن هشام ومن غالب
أشب حروبا وأطفى حروبا

وتألقت الموسيقى فى عهد عبد الرحمــن الأوسط . وقد اشتهر أن البلاط وتسيير دفة الأمور فيــه كان تحت سلطان جاريته « طروب » ومغنيه « زرياب » .

ولم يكن أثر زرياب مقصوراً على تطوير الموسيقى والغناء بالأندلس ، وتجديده فيهما ، وسحر أهلها بحسن صوته وجمال أدائه واعجاز فنه ، وتبحره فيه ، حتى قيل ان ما حفظــه منه تجاوز الألوف من الألحان والأغانى . بل لقد فتن الناس فوق هذا كله بآدابه وســعة ثقافته وتنوع معرفتــه ... كان عالماً بالنجوم ، وتقويم البلدان وطبائعها ومناخها ، وتشعب بحارها ، وتصنيف شعوبها .

كما كان لزرياب حظ عظيم من آداب اللياقة ، وضروب الظرف ، وفنون الأدب ولطف المعاشرة ، وآداب المجالسة وطيب المنادمة والمحادثة . وكان له من مظاهر الجمال والتأنق ما تفرد به حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصــهم من الأمراء والأشراف قدوة فيما سنه لهم . فكانت كلمته عندهم قانونا ، ورأيه تشريعاً ودستورا للجمال والذوق .

فكان له ذوقه الخاص فى الملابس ، وسن لهم اختيار الثياب المناسبة لكل فصل بما يلائم طقس كل منها ، فجعلها متفاوتة متغيرة . فكان يرتدى الأقمشة الخفيفة ذات الألوان الزاهية الجميلة فى فصل الربيع ، والأثواب البيضاء الفضفاضة صيفا ، ومعاطف الفراء والقلانس شتاء . وهكذا كانوا يتنقلون على

مدار الفصول ما بين أبيض وملون ومبطن ومحشو ، وما بين خفائف الثياب حتى صنوف الفراء .

وكان له ذوقه الخاص فى تنسيق الموائد وتنظيمها واتخاذ الأكواب من الزجاج الرقيق بدلا من المعادن ، واصطناع لأصص للأزهار من الذهب والفضة . وقد استحسن الناس ذوقه حتى فى الأطعمة ، فدلهم على صنوف محببة منها لم تكن الأندلس تدرى شيئا عنها كالنوع المسمى على حد تعبيرهم « النقايا » وهو مصطنع بماء الكزبرى محلى بالسنبوسق [1] . وهو أول من أدخل الى المطعم الاسبانى طعام « الهليون » وهى بقلة لم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله ، وقد سموها بلسانهم « الاسفراج » . ومن تلك الأطعمة ما صار الى آخر أيام أهل الأندلس منسوبا اليه ، معروفا به . والى الآن ينسب نوع من الحلوى اليه فى الشرق يسمونه « زلابية » وهو تحريف عن « زريابية » . وقد اشتهر عنه اقامة الولائم الفخمة وتنسيقها وترتيبها وكان ذلك كله النواة الأولى فى فخامة قصور ملوك الأندلس وبيوت الأغنياء وأناقتهم .

فكان ذوقه فى كل هذا نموذجا احتذاه أهل قرطبة ، وأخذت منذ ذلك الحين الطبقة الأرستقراطية فيها بصفة خاصة وأهلها بصفة عامة يحاكون زرياب ويتخذونه قدوة فيما يفعل .

ومما قلده فيه أهل قرطبة تحذيق الشعر وتنظيمه وتصفيفه

---

(١) نوع من المعجنات المحشوة باللوز والفستق والسكر (يشبه القطائف) .

فانه حين دخل الأندلس كان جميع أهلها من رجال ونساء يرسلون الشعر مفروقا وسط الجبين شاملا للصدغين والحاجبين . فلما رأوا تحذيق زرياب هو وولده ونساؤه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها الى آذانهم ، مالت اليه قلوبهم وقلدوه .

وقد اخترع لهم نوعا من المركبات أسماه « المرتك » . يستعمل لتطييب الجسم من أثر العرق . وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك فكان يترك أثرا فى ملابسهم ، فدلهم زرياب أيضا على ما يزيل هذا الأثر .

ومما أخذه عنه الناس بالأندلس ابتكاره أنواعا من الفرش اللينة الناعمة بدلا من ملاحف الكتان ، واختياره سُفَر الجلد لتقديم الطعام على الموائد الخشبية ، اذ أن آثار الأطعمة تزول عن الجلد بأقل مسحة .

وكانوا ينسبون الى زرياب كل جديد يظهر فى قرطبة متصلا بالظرف وبالجمال من ذلك انشاء « حمّام زرياب » الذى يعتبر أعجوبة قرطبة من حيث البناء الفخم وما يضمه من معمار عجيب .

وقد أشاع زرياب فى الأندلس كلها روح الظرف وألوان الترف والتجديد فى كل شىء . ومن ظريف ما صنعه من ذلك تعليم الجوارى كتابة الشعر على أثوابهن وعلى الآلات الموسيقية مما لم يكن لهن به عهد ، وذلك زيادة فى التأنق والتظرف .

وبقيت هذه العادة حتى بعد وفاة زرياب . وظلت متبعة فى قصور العظماء المترفين وتناقلتها الأميرات عن الجوارى حتى امتد ذلك الى « ولادة » بنت الخليفة المستكفى بالله خلفها من مولاة له اسبانية ، وقد أوتيت جمال الصورة وجمال الأدب وجمال الغناء الفاتن والصوت الساحر وجمال جميع الحياة من حولها ، وكان قصرها ملتقى للأدباء والشعراء والمغنين وكانت هى شاعرة ، حادة المزاج قاسية صريحة . وقد طرزت بالذهب الخالص على أحد طرفى وشاحها :

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وطرزت على الطرف الآخر :

أمكن عاشقى من صحن خدى
وأعطى قبلتى من يشتهيها

وكما تألقت الموسيقى فى بلاط عبد الرحمن الأوسط بفضل زرياب ومدرسته تألق كذلك الشعر بما ضم البلاط فيه من شعراء كان فى مقدمتهم شاعر القصر يحيى بن الحكم بن الغزال وسنعود للتحدث عنه فيما بعد . وكذلك كان من شعراء البلاط طائفة لم تبلغ فيه مرتبة ابن الغزال وان كان كثير منهم قد فازوا بالشهرة والذيوع ، منهم تمام بن علقمة الذى أنشأ أرجوزة مطولة أتى فيها على تاريخ افتتاح المسلمين للأندلس ، وحسانة التميمية بنت الشاعر أبى الحسين ، وابن عبد ربه صاحب

العقد الفريد ، وكان ما يزال فى حداثة سنه . وعباس بن فرناس الذى قام بأول محاولة للطيران بجناحين من ريش .

وبلغ من اقبال الأسبان المستعمرين فى ذلك العصر على الاهتمام باللغة العربية أن كادت تختفى عندهم اللغة الاسبانية الأصيلة ، حتى سجل الأسقف « ألبرو القرطبى » استنكاره لتلك الحالة وشكا مما يراه من تضلع الشبان من أهل بلده فى لغة العرب وشغفهم بالشعر العربى والأغانى العربية ، مفضلين ذلك على ما بقى ، وكان العرف يجرى به من قبل ، من الاهتمام بالأدب اللاتينى واللغة اللاتينية .

وبلغ من غرام أهل الأندلس بالشعر فى ذلك الحين واقبال الشعب عليه وانتشار الأغانى باللغة الدارجة وتقدم الموسيقى وتطورها وطموح الفنانين من الشعراء والموسيقيين أن ظهر بينهم فن شعبى جديد هو فن الزجل والموشحات . وسنفرد له بابا خاصا فى هذا الكتاب .

على أن ما نريد أن نسجله هنا هو أن زرياب كان عماد هذه النهضة كلها والدافع اليها والباعث لها .

* * *

حساد وحاقدون

أقرب ما فى طبائع البشر الأنانيــة والعقــوق والجحود . الأنانية التى تكره أن تؤمن بعبقرية غيرها ، ولو كان فى الايمان بها نفعها . والعقوق الذى يمقت الاعتراف بجميل المصلحين . والجحود الذى لا يطيق العظمة التى توهب لفرد فتميزه عمن سواه ، من أبناء مهنته . حتى اذا مات اعترف الجميع بفضله ، وسطرت الدنيا ذكراه فى صفحات الخلود .

وزرياب من هؤلاء العباقرة الأفذاذ ، فقد ظل طوال حياته يجد الحساد والحاقدين فى كل مكان يحل به . وقد رأينا كيف كان موقف أستاذه اسحاق الموصلى معه ، وكيف أســاء الى سمعته عند الرشيد فرماه بالغرور وبالجنون ، وبكل نقيصــة يمكن أن تنفر الرشيد منه . ثم رأيناه فى القيروان وكيف انتهى مقامه بها الى وضع مزر مهين اضطره الى مغادرة تلك المدينة قسرا غير مأسوف عليه .

حتى أنداده من أعلام الموسيقى الذين ترك لهم بغداد كلها بنعيمها وثرائها وجميع مميزاتها ، ورضى هو بالرحيل عنها ، وبعد أن استقر به المقام فى بلد ناء عنهم نراهم ما زالوا يحسدونه على ما بلغه فى غربته من توفيق ونجاح ، وما حازه من مجــد وتقدير فى بلاد الأندلس .

ها هو ذا علوية [1] الذى يعد فى الصدارة من أعلام الطبقة الأولى فى الغناء ببغداد يروى عن نفسه فيقول :

« كنت مع المأمون لما قدم الشام ، فدخلنا دمشق وجعلنا نطوف فيها على أماكن بنى أمية . فدخلنا قصرا مفروشا بالرخام الأخضر ، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقى بستانا . وفى القصر من الأطيار ما يغنى صوته عن العـود والمزمار . فاستحسن المأمون ما رأى وعزم على الصبوح . فدعا بالطعام ، فأكلنا وشربنا . ثم قال لى : غن بأطيب صوت وأطربه . فلم يمر على خاطرى غير هذا الصوت :

لو كان حـولى بنى أميـة لم
ينطق رجال أراهم نطقـوا

فنظر الىّ مغضباً وقال : عليك لعنة الله وعلى بنى أمية . فعلمت أنى قد أخطأت . فجعلت أعتذر من هفـوتى وقلت : «يا أمير المؤمنين أتلومنى أن أذكر موالى بنى أمية ، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس يركب فى أكثر من مائة مملوك وفى ملكه ثلثمائة ألف دينار دون الضياع ، وأنا عنـدكم أموت جوعا » . فغضب عليه المأمون نحو شهر ، رضى بعده عنه .

---

(1) علوية : هو على بن عبد الله بن سيف ، ويكنى أبا الحسن . من محسنى صناعة الغناء فى الدولة العباسية . ومن الضراب المجيدين . وكان أعسر (اى اشول) يبدو وضع العود فى يده مقلوب الأوتار بالنسبة للوضع العادى ، وكان أسفل الأوتار أكثرها غلظا وهو « البم » تعلم الغناء على ابراهيم الموصلى . وتوفى فى زمن المتوكل بعد وفاة اسحاق الموصلى بقليل .

وإذا كان هذا شأن أنداده البعيدين عن منافسته لهم والخارجين عن دائرة نفوذه فماذا يكون الحال مع هؤلاء الذين تجمعهم واياه خدمة البلاط فى قرطبة ؟

ما كادت قدم زرياب تطأ أرض الأندلس ، ويكتسب رضا عبد الرحمن بن الحكم فيبذل له ولأهله من المال والعطايا ما قد أوضحناه ، ثم يجعل منه النديم المقرب والأنيس صاحب النفوذ الأول فى البلاط حتى غلت مراجل الحقد فى قلوب من كانوا يتمتعون بمثل هذه المنزلة قبل قدوم زرياب ، الذين أضعف نفوذه ما كان لهم من نفوذ ونزل به ما كان لهم من أقدار .

وفى مقدمة هؤلاء الخصوم يحيى بن حكم المعروف بالغزال . ويعد من أقوى خصوم زرياب وأقدرهم . ذلك أنه كان شاعر البلاط المقرب الى الخلفاء فى قرطبة قبل قدوم زرياب اليها. وهو ابن الأندلس وربيب الدولة الأموية فيها اذ كان مولده عام ١٥٦ هـ / ٧٧٣ م فى عهد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) وعاش باقى امارته وامارة هشام وامارة عبد الرحمن الأوسط ، ومات فى امارة الأمير محمد عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م وهو ابن ٩٤ سنة .

وكان يحيى شاعرا مجيدا ، ومحدثا لبقا ، وأديبا أريبا ، حتى وصفوه بأنه حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها . فلا عجب أن يصطفيه خلفاء الدولة الأموية فى قرطبة ليكون شاعر البلاط المقدم على من سواه . بل لقد كان عبد الرحمن الأوسط يوفده

فى سفارات بينه وبين الملوك . وكان شعره مليئا بالحكمة والمعرفة بطبائع الناس ، فمن شعره قوله :

اذا أُخبرتَ عن رجــل برىء

من الآفات ظاهــره صــحيحُ

فســلهم عنه هــل هو آدمى ؟

فان قــالوا نعم ، فالقــول ريح

ولـكن بعضــنا أهــل اســتتار

وعنــد الله أجمعنــــا جــريح

ومن انعــام خالقنا علينــا

بأن ذنوبنــــا ليست تفــوح

فلو باحت لأصــبحنا هــروبا

بــواد بالفــلا ما نســتريح

وضاق بكل منتحل صــلاحاً

لنتن ذنوبه البلد الفســيح

وله أيضا :

وخيَّرها أبوها بين شيخ كثير المال أو حَدِثٍ فقير :..

فقــالت خطتا خســف وما ان

أرى من حظــوة للمســتخير

ولـكن ان عــزمت فــكل شىء

أحب الىَّ من وجــه الكبــير

لأن المــرء بعــد الفقــر يثرى

وهــذا لا يعــود الى صــغير

ومن حكمه ما قاله فى مقابر الأغنياء والفقراء :

أرى أهــل اليسار اذا توفــوا
بنــوا تلك المقــابر بالصخور
أبــوا الا مبــــاهاة وفخــراً
على الفقــراء حتى فى القبــور
ألمّــا يبصروا ما خربتــه الـ
ـدهــور من المدائن والقصــور
لعمــر أبيهم لو أبصــــروها
لمــا عرفوا الاناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوب صوف
من البــدن المباشر للحــرير
اذا أكل الثرى هــذا وهــذا
فما فضــل الكبير على الحقير ؟

وكان يحيى بن حكم هذا لبق الحديث ، حسن الصورة ، وسيماً ، حتى غلب عليــه لقب الغزال لجمــاله . وكانت له قوة ساحرة فى التسلط على قلوب الناس . وقد بلغ من افتتان النساء به أنه حين أرسله عبــد الرحمن الأوســط فى سفارة الى بلاد الدانيمارك غزا قلوب حاشية البلاط هناك وتسلط عليهن بظرفه ولباقة حديثه . وأعجبت به الملكة « تود » حتى قالوا انها كانت لاتصبر عن بعده يوماً واحدا . وقد تعلق هو أيضا بتلك الملكة . ومما قاله فيها :

كلفتَ يا قلبى هـــوى متعبـــا
غالبتَ منـــه الضـــيغم الأغلبا
انى تعلقت مجوســـــية[1]
تأبى لشمس الحسن أن تغربا[2]
يا «تود» يارود[3] الشباب التى
تطلع من أزرارها الـــكوكبا
يا ، بأبى الشخص الذى لاأرى
أحـــلى على قلبى ولا أعـــذبا
ان قلت يـــوما ان عيـــنى رأت
مشـــبهه لم أعـــدُ أن أكـــذبا

وقد ضاعف نجاح هذا الشاعر فى تلك السفارات الأوربية ما كان يحس به من غرور وما كان يتصف به من زهو وصلف . وقد ساءه منذ حضر زرياب الى بلاط قرطبة اطراد نجاحه وزيادة نفوذه ، حتى كاد يطغى على كل شىء حوله ، وأن يقضى على ما كان يتمتع به يحيى من سلطان وما كان له فى البلاط من منزلة ونفوذ . فزاد حقده على زرياب ، وتزعم حركة قامت لمناوأته . وبالغ فى الأمر حتى هجا زرياب هجاء مقذعا . وكان يحيى سليط اللسان . ومن هجائه اللاذع لأبى حازم قوله :

(١) يعنى نصرانية .
(٢) أى انها لحسنها تقوم مقام الشمس التى لا تغرب .
(٣) الرود : الطلب والمطلب .

سألت في النوم أبي آدما
فقلت والقلب به وامق [1]

أبنك بالله أبو حازم ؟
صلى عليك الملك الخالق

فقال لي : ان كان مني ومن
نسلي فحوا أمكم طالق

ولما بلغ الخليفة الهجاء المسف الذى قاله يحيى فى زرياب غضب على الشاعر غضبا شديداً حتى أمر بنفيه من الأندلس . فرحل الى العراق [2] . فهل استطاع الغزال الشاعر المتصلف أن ينجح فى بغداد نجاح زرياب الموسيقار المتواضع فى قرطبة ؟

لم يكن فى طاقة الغزال أن ينجح فى المشرق وفيه أكابر شعراء العروبة اطلاقا . فلما جلس الى جماعة من أهل بغداد رأى استخفافهم بأهل الأندلس واستهجانهم لأشعارهم . فاستخدم يحيى عبقريته الدبلوماسية عله يصيب بينهم شيئا من النجاح . لقد كان حضوره الى بغداد بعد وفاة أبى نواس شاعر الخمريات ولذاذات العيش . فانتظر الغزال حتى ذكروا فى أحد مجالسهم شاعرهم الفقيد ، فقال لهم : من منكم يحفظ لأبى نواس قوله :

---

(١) ومق : أحب . وتومق : تودد .

(٢) وقد عاد الى قرطبة بعد موت زرياب وفى عهد محمد بن عبد الرحمن الاوسط . وسنعود الى ذكر ذلك فيما بعد .

ولما رأيت الشَّرب أكدتْ سماؤهم
تأبطت زقى واحتبست عنــائى
فلـــا أتيت الحـــان ناديت ربه
فثاب خفيف الروح نحـــو ندائى
قليلَ هجـــوع العين الا تعلَّة
على وجل منى ومن نظـــرائى
فقلت : أذقنيها ! فلمـــا أذاقها
طرحت اليـــه ريطتى وردائى
وقلت : أعرنى بذلة أســـتتر بهـــا
بذلت له فيها طلاق نســـائى
فوالله ما برَّت يمينى ولا وفت
له غـــير أنى ضـــامن بوفائى
فأبتْ الى صحبى ــ ولم أك آئبا ــ
فكل يفدِّينى وحُقَّ فـــدائى

فأعجبوا بالشعر وأثنوا عليه ومدحوه . فلما أفرطوا ، قال لهم : خفضوا عليكم فانه لى .

ثم أنشدهم قصيدته التى مطلعها :

تداركت فى شرب النبيـــذ خطائى
وفارقت فيـــه سيمتى وحيـــائى

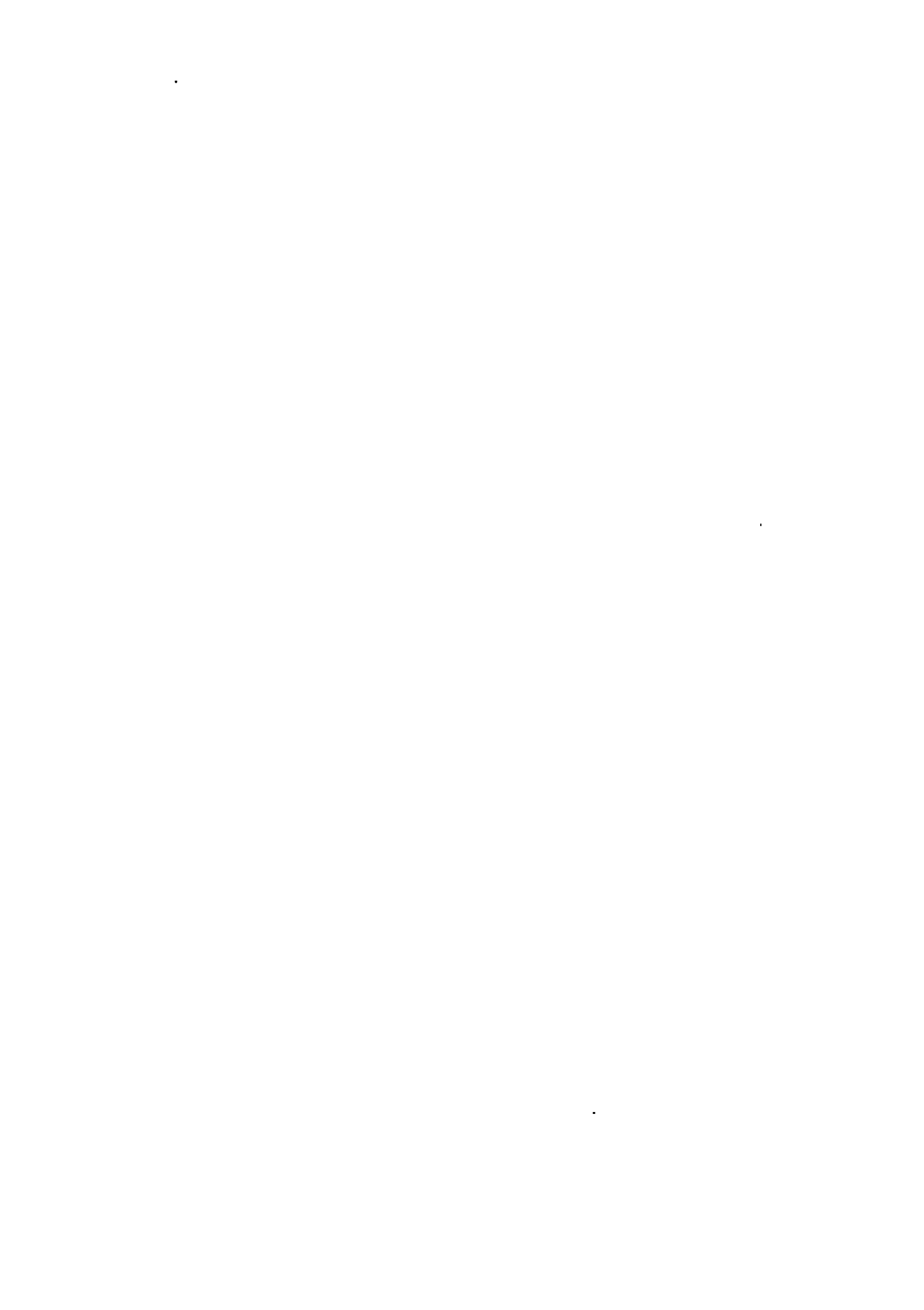
ولكن الغزال رغم كل هذه المحاولات لم يصادف فى بغداد نجاحا يذكر وهذه كانت النتيجة الحتمية لتصديه لعبقرى فذ ليست بينهما مزاحمة فنية تدعو الى الحقـــد والمنافسة . ولم

يستفذ الغزال من هذا الحسد وذلك التصدى شيئا سوى النفى والغربة والهزيمة أمام شعراء فى أزهى عصور العروبة ليس له مثل شعرهم ولا مثــل بلاغتهم . وكانت هذه أيضــا نتيجة لمخاصمته وحقده على زرياب هو ومن جمعهم حوله من حاشيته وأتباعه ، وبذل غاية الجهد فى مناوأته ، حتى قيل عن زرياب فى هذه المناسبة : « لولا أن خلفاء زمانه أخذوا بيده ونصروه على خصومه لراح ضحيتهم » .

***

ولعل لنا فى ذلك عبرة ، فهى عظة يحملها الينا التاريخ عبر العصور والدهور ، ان من يعيش أنانيا محباً لنفسه غير عابىء بالمصلحة العامة مناوئا للعباقرة المجدين يعيش طريدا حتى ولو كان عزيزا فى قومه ، وان الذى يعيش مخلصا لفنه ومهنته عاملا لصالح المجتمع وتقدم البشرية يبلغ من المجد أبلغ غاياته ويظل دائما عزيزا مكرماً ، ومن الجميع فى موضع التجلة والاحترام حتى ولو كان غريبا لاجئا .

وهكذا تنتهى مكايد خصوم زرياب وحساده الى الخيبة والفشل ، وترتد نبال دسائسهم الى صدورهم ، فينتصر عليهم انتصار الخير على الشر والحق على الباطل .



الفصل السادس

أبناؤه وتلاميذه وجواريه

- أبناؤه .
- تلاميذه وجواريه .

أبناؤه وتلاميذه وجواريه

أبنـــاؤه :

كان لزرياب من ذكور الولد ثمانية هم :

عبد الرحمن ، وعبيد الله ، ويحيى ، وجعفر ، ومحمد ، وقاسم ، وأحمد ، وحسن . ومن الاناث ثنتان : علية وحمدونة . وكلهم شغف بالغناء ، ومارس هذه الصناعة وبلغ فيها الغاية وان اختلفت فيها مرتبتهم . فكان أجودهم فى الذكور عبيد الله ، ويتلوه فى ذلك عبد الرحمن وقاسم .

وقد بلغ بعبد الرحمن من فرط التيه وشدة الزهو وكثرة العجب بغنائه أن ظن أنه الأوحد فى هذه الصناعة ولا نظير له فيها . وكان يتّسم بجفاف الطبع والخشونة وعنف المعاملة مع الناس . وذلك على نقيض ما كان يتحلى به والده من الشمائل الحلوة والظرف الجميل . وقلما سلم مجلس حضره هذا الفنان الطائش المشاكس من شغب وكدر يحدثه . وبلغ به الزهو أن يجترىء على الأمراء ويستخف بالعظماء . والرواية التالية تدل على مدى سخفه وعقم تفكيره . قالوا :

« انه حضر يوما مجلس بعض الأكابر الأعاظم ، فى أنس طاب به سروره ، وكان صـاحب قنص تغـلب عليه لذته . فاستدعى بازيا كان كلفا به كثير التذكر له . فجعل يمسح أعطافه

ويعدّل قوادمه ويرتاح لنشاطه . فسأله عبد الرحمن أن يهبه له . فاستحيا من ردّه وأعطاه اياه مع ضنّه به . فدفعه عبد الرحمن الى غلامه ليعجل به الى منزله ، وأسرّ فيه بسر لم يطلع عليه . فمضى لشأنه . ولم يلبث أن جاء بطيفورية مغطاة مكرمة بطابع مختوم عليها من فضة . فاذا به لون مصوص قد اتخذ من البازى بعد ذبحه على ما حدّه لأهله . وذهب الى الاتقال اليه فى شرابه . وقال لصاحب المجلس : « شاركنى فى نقلى هذا فانه شريف بديع الصنعة » . فلما رآه الرجل أنكر صنعته وعاب لحمه . وسأله عنه . فقال : هو البازى الذى كنت تعظم قدره ولا تصبر عنه قد صيّرته الى ما ترى . فغضب صاحب المنزل حتى ربا فى أثوابه وفارق حلمه ، وقال له : « لقد كان والله أيها الكلب السفيه على ما قدّرته وما اقتديت فيه بكبار الناس المؤثرين لمثله . وما أسعفتك به الا معظما من قدرك ما صغّرت من قدرى ، وأظهرت من هوان ألسنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهى عنها . ولا أدع والله الآن تأديبك ، اذ أهملك أبوك معلم الناس المروءة » . ودعا له بالسوط . وأمر أن ينزع قلنسوته وساط هامته مائة سوط . فاستحسن الجميع فعله وأبدوا الشماتة به » .

وهذه القصة تدل على شذوذ كامن ، وعلى غرور واضح فى عبد الرحمن الذى لم يعان الشقاء والمحنة كما عانى والده الرقيق المهذب ، وانما استقبل السعادة منذ قدم مع الأسرة الى

الأندلس فوجد النعمة التى غرته حتى انتهت بمائة سوط على هامتــه .

وكان محمد بن زرياب مؤنثا لا ينجب الا اناثا . كما كانت حمدونة فنانة وشاعرة وزوجة سعيدة لوزير خطير المكانة هو هشام بن عبد العزيز . وقد اشتهرت بفصاحة اللسان ، وهى غير حمدونة التى لقبوها بخنساء المغرب ، والتى من شعرها :

ولما أبى الواشــــون الا فراقنـــا
وما لهم عنـــدى وعنـــدك من ثار
وشـــنوا على أسماعنـــا كل غارة
وقل حماتى عنـــد ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتيـــك وأدمعى
ومن نَفَسى بالسيف والسيل والنار

وكانت حمدونة متقدمة على أختها عُلية التى امتـــد بها العمر بعد شقيقتها واخوتها ، ولم يبق من ولد زرياب سواها فكانت بمثابة المرجع الأخير من الأسرة لرواية فن أبيها فى أهل الأندلس .

تلاميذه وجواريه

أما عن تلاميــذ زرياب فيمكن القول ان جميع المغنـين والمغنيات فى الأندلس هم تلاميذه وتلاميذ مدرسته . وقد سبق أن ألمعنا الى ذكر بعضهم ، ونشير بصفة خاصة فيما يلى الى طائفة أخرى ذاعت شـهرتها وكان لها أثر ظاهر فى النهضـة الموسيقية بتلك البلاد .

كانت لزرياب جارية اسمها « منفعـة » قام على تثقيفها وتعليمها ، فكانت تؤدى أغانيه أحسن أداء ، وهى الى ذلك رائعة الجمال . وحـدث يوما أن مثلت بين يدى عبد الرحمن الأوسط ، فأخـذت تغنيه مرة وتسـقيه أخرى . فلما فطنت لاعجابه بها ، كاشفته هى الأخـرى بميلها اليه . وغنته بهذه الأبيات ، وهى من تأليفها فى رواية بعض الحفاظ :

يا من يغطى هـواه من ذا يغطى النهـارا
قد كنت أملك قلبى حتى علقت ، فطـارا
يا ويلتـا ، أتـراه لى كان أو مستعارا

ولما أحس زرياب بأنها حازت من الأمير قبـولا ورضا ، أهداها اليه فحظيت عنده .

وكانت « مصابيح » جارية الكاتب أبى حفص عمـر بن

قلهيل من تلميذات زرياب اللائى أخذن عنه فنون الغناء والموسيقى . وكانت غاية فى علو النفس وحسن الصوت وقد رغب ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فى سماعها ، ولكن مولاها أبا حفص أبى عليه ذلك . فوجه ابن عبد ربه اليه أبياتا رقيقة منها :

يا من يضن بصوت الطائر الفرد
ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة
أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلما بلغه ذلك ، قبل دخول ابن عبد ربه الى مجلسه والتمتع بسماعها .

واشتهر كثير من الجوارى المشرقيات اللواتى استدعاهن عبد الرحمن الأوسط الى قرطبة فكن فيها رواد الموسيقى والغناء بفضل ما أسبغ عليهن زرياب من تعليم وتدريب وتوجيه فنى جعلهن فى طليعة أعلام هذا الفن . وكان منهن أربع لهن المقام الأول ، هن :

١ ــ «فضل» : وكانت على جانب كبير من حسن الخلق وجمال الصوت . وهى من جوارى احدى بنات هارون الرشيد ، نشأت فى بغداد وتعلمت بها أصول فن الغناء . ثم انتقلت الى المدينة بعد أن أعتقت ، حيث ذاعت فيها شهرتها .

٢ ــ « علم » : وكانت كصاحبتها جمة الظرف ، حسنة

الصوت ، عاليـــة الثقافة . نالت فى المدينة شهرة ذائعـــة قبل رحيلها الى الأندلس .

٣ ــ « قلم » : وهى أندلسية الأصل ، حملت صبية الى المشرق ، وتعلمت فى المدينة أصـــول الغناء حتى برعت فيه . وكانت على جانب عظيم من فصاحة اللسان والمقدرة البيانية .

٤ ــ « قمر » ، وكانت رائعة الجمال ، وثيقة المعرفة بفنون الغناء وصوغ الألحان وقد قدمت من بغداد ، وأصبحت أديبة شاعرة .

ومن شعرها فى الشوق الى بغداد :

آه على بغـــــدادها وعـــراقها
وظبائها والسحـــر فى أحـــداقها

ومجالس عند الفـــرات بأوجه
تبدو أهلّتها على أطـــواقها

متبخـــترات فى النعيم كأنمـــا
خلق الهوى العذرى من أخلاقها

نفسى الفـــداء لها لأى محاسن
فى الدهر تشرق من سنا اشراقها

واستطاع زرياب ــ بفضل أبنائه وجواريه وتلاميذه الذين وفدوا معـــه والذين تلقوا على يده صـــناعته ــ أن ينقـــل غناءه الى أكثر بقاع الأندلس . واستجابت طبيعة الأندلسيين الى

فن الموسيقى فانتشرت مجالس الغناء ، وأصبح هذا الفن بجملته جزءاً من ثقافة الشعب ، حتى لتجد الفلاح فى حقله والعامل فى مصنعه والفقير فى كوخه لا يقل ولع أحدهم بالغناء عن الأمراء والعظماء .

روى الأرقمى :

« ... قال لى أبو السائب ، وكان من أهل النسك : هل لك فى أحسن الناس غناء ؟ قلت : وأين ذلك ؟ فجئنا الى دار « مسلم بن يحيى » مولى بنى زهرة فأذن ، فدخلنا بيتا عرضه اثنا عشر ذراعا فى مثلها ، وطوله فى السماء ستة عشر ذراعا . وفى البيت مقعدان قد ذهب عنهما اللحمة وبقى السدى ، وقد حشيا بالليف ، وكرسيان قد تفككا من قدمهما . ثم طلعت علينا جارية عجفاء كلفاء عليها هروى أصفر غسيل . فقلت لأبى السائب بأبى أنت ما هذه ؟ فقال : اسكت . وتناولت الجارية العود ، وغنت :

بيد الذى شغف الفؤاد بكم
تفريج ما ألقى من الهم
فاستبقنى انى كلفت بكم
ثم افعلى ما شئت عن علم

قال : فتحسنت فى عينى . وبعد أن أذهب الكلف عنها ،

وبعد أن علمت أنها هى « العجفاء » للمغنية بقينا تتردد اليها ، حتى صارت عند الأمير عبد الرحمن » .

وكان من أثر زرياب ومدرسته الموسيقية أن أصبح للخلفاء والأمراء وأكابر القوم شغف خاص بالغناء حتى لقد مارسه الكثير منهم ، على سبيل الهواية لا الاحتراف . وقد أشرنا الى الندوات والمجالس التى كانت تقيمها « ولادة » بنت الخليفة المستكفى بالله ، وكانت فى اجادتها لأصول الغناء ، وعلو مكانتها ، وشرف محتدها فى المغرب ، مسامية لعلية بنت المهدى فى المشرق .

***

ولا يفوتنا أن نشير الى أنه اذا كان من الميسور أن نحصر عدد أبناء زرياب وبناته ، فليس من السهل أن نحاول تقديم احصاء لتلاميذه والمتأثرين به ، فانهم أكثر من أن يحتويهم بيان واف بهم وبآثارهم ، فقد كانوا من الكثرة بحيث لم تقتصر عليهم مدينة قرطبة بل كانوا ملء الأندلس ومدنها وقراها .

وعلى قدر ما كان لزرياب وأبنائه وتلاميذه من الأثر الملحوظ فى نشر الموسيقى والغناء بالأندلس ، فلقد كان له ولمدرسته أعظم دفع فنى وتأثير فى خلق ألوان من الشعر الأندلسى الجديد .

لم يكن زرياب من أبطال الشعر والمتخصصين فيه

المشهورين به ، كما كان فى الموسـيقى بمقامه الكبير . ولكن تجديده فى الموسيقى كان بحاجة الى خلق ألوان جـديدة من الشـعر تساير هـذا التطور . وقد تم له ذلك فكان اختراع الموشحات والزجل استجابة لهذا الفن الجـديد . وحسبنا أن يكون من ثمار هذه المدرسة ، ومن طليعة هذه النهضة : مقدم ابن معافى القبرى وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وغيرهما ممن ساهم فى ابتكار وتدعيم ما استحدث من تلك الموشحات والأزجال .

الفصل السابع

الموشحات والأزجال

- مرحلة البـــداية .
- مرحلة الازدهار .

الموشحات والأزجال

كان فى مقدمة البواعث التى حدت الى ظهور الموشحات والأزجال فى بلاد الأندلس عاملان : أحدهما فنى والآخر شعبى .

فالعامل الأول : طموح الموسيقيين ، وقد ضاقوا ذرعا ببحور الشعر وأوزانه الموروثة التى سجلها علم العروض ، وبالقافية المتكررة طوال القصيدة التى تسير على روى واحد فى جميع أبياتها ، مما يقيد من حرية الملحن ويجمد امكانياته الفنية الى حد بعيد . فلما جاء زرياب ومدرسته من أبنائه وتلاميذه ، وجددوا فى فنون الموسيقى العربية ، وتطوروا بها وبآلاتها وأنظمتها ، تطلب فنهم الوثاب مجالات فسيحة وضروبا جديدة من فنون الشعر . واحتاجوا الى ايجاد ألوان طريفة منها ، تعبر تعبيراً مبتكرا عن تلك الموسيقى الجديدة المتطورة ، ألوان يتحلل فيها الفنان من قيود تلك البحور المعدودة والقوافى الضيقة المحدودة التى درج عليها الشعر وظل قرونا وأحقابا لا يتغير الا من حيث الفكرة والأسلوب ، وبقى مغلولا فى تلك الأصفاد من تلك الأوزان والقوافى .

وسرعان ما استجاب الى هؤلاء الموسيقيين المجددين شعراء موهوبون ، لم يستطيعوا أن يجاروا شعراء المشرق

فيما بلغوه فى الشعر العربى التقليدى من سمو المكانة وعلو المنزلة ، فوجدوا فى مجاراة الموسيقيين متنفسا لفن جديد ، واخترعوا ألوانا مبتكرة من الشعر هى الموشحات ثم الأزجال .

وتنقسم الموشحات من حيث أوزانها الى قسمين :

(١) موشحات جاءت على أوزان أشعار العرب .

(٢) موشحات لا وزن لها فى أوزان العرب .

وقد قالوا عن القسم الأول — أى ما جاء على بحور الشعر المعروفة — ان الوشاحين يعدونه مرذولا . وهو فى نظرهم أشبه بالمخمسات منه بالموشحات ، ولا ينظمه الا الضعفاء من أصحاب هــذه الصناعة . وهم لذلك يستحسنون أن يحوروا فيه ويخرجوه عن الوزن المعروف بادخال كلمة أو حركة تتخلل فقراته . فمثال الكلمة قول ابن بقى :

صبرت والصبر شيمة العانى ولم أقل للمطيل هجرانى
معــذبى كمــانى

فهذا من المنسرح . وأخرجه منه قوله : « معذبى كفانى » .

ومثال الحركة :

يا ويح صــب الى البرقِ . له نظر
وفى البكاء مع الوُرقِ . له وطــر

فهذا من البسيط . ومجيئه على هذه الصورة فيه استباحة لزحافات لا يستبيحها الشعراء التقليديون .

أما القسم الثانى فهو ما خالف أوزان العرب ، ولم يخضع لعروض الشعر التقليدى ، وغرضــه الغناء أكثر من الانشاد .

وهو الكثير الشائع فى الموشحات لأن الأصل فى اختراع الموشحات انما كان من أجل الغناء . ولهذا فان الشاعر الوشاح لا يطلب اليه التقيد بوزن قديم معروف . وميزة فن الموشحات وجماله فى حرية الوزن حرية تقودها أذن موسيقية وتدعو اليها ضرورات التلحين والغناء .

ولذلك نرى الوشاحين انما يتعمدون اللحن والموسيقى ، ويقصدون الى الغناء والطرب . ولهذا فقد نظموا هذه الموشحات فيما يلائم الموسيقى والغناء فكانت ، فى الأعم والأغلب ، تهدف الى العاطفة ، وتسكن الى الطبيعة ، وتجنح الى رقة الألفاظ وقصر الفقرات وجمال التصوير . وهى فى ذلك تخضع للنغمات الموسيقية لا للتفاعيل العروضية . ولذلك نرى المغنى عند أدائه لها يزيد عليها كلمات مثل : « يا للتى » أو « أمان » . أو يعوض فيها نقص الوزن بمدّ حرف أو قصره أو غنته . ولذلك قالوا :

« ان طبيعة التوشيح والزجل تجعلهما يسمعان أحسن مما يقرآن ، ويقوّمان بالأذن أكثر مما يقوّمان بالعين » .

وقد قال ابن سناء الملك فى ذلك :

« ليس للموشحات عروض الا التلحين ، ولا ضرب الا الضرب ، ولا أوتار الا الملاوى وأكثرها مبنى على الأرغن [1] » .

---

(١) يعنى الآلات الموسيقية .

وقد تحرر شعراء الموشحات والأزجال من التقيد ببحور الشعر الستة عشر فقالوا فيها من الأوزان ما شاءوا أن يقولوا ، مرجعهم فى ذلك الى الأذن والسماع . وقد حاول ابن سناء الملك حصر أوزان الموشحات كما فعل الخليل فى أبحر الشعر فأخفق وقال :

« وكنت أردت أن أقيم للموشحات عروضا يكون دفتراً لحسابها ، وميزانا لأوتارها ، فعزّ ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف » .

وكما تحللت الموشحات من بحور الشعر ، تخلت كذلك عن التقيد بقافية واحـدة يلتزمها الشاعر طوال القصـيدة . فتعددت قوافى الموشحة ، كما تنوّعت أوزانها ، حتى لا تخضع لنغمة واحدة يتسبب عن تكرارها السآمة والملل .

العامل الثانى فى ظهور الموشحات فى الأندلس : أن ابتكار هذا الفن جاء موافقا لطبيعة تلك البلاد وأهلها . فهو فن خلق لوصف حياة الدعة والترف والأنس التى كان يتمتع بها أهل الأندلس . وكثيرا ما نجد هـذه الموشحات تتعرض لوصف طبيعة تلك البلاد « فتصورها بألوانها وأصباغها ، وطيورها وبلابلهـا وأزهارها وأشـجارها وجـداولها وعبـيرها » ... والموشحات هى فن ملتقى العشاق وساحة اللهو والطرب ومبعث الحب والحنين .

والموشحات من أجل ذلك لا تقصد فى تأليفها الى عمق المعانى ومتانة التراكيب ، انما هدفها الأول أن تمهد لجو موسيقى

حبيب تظلله أضواء خفيفة ونشوة حلوة فى صورة براقة من تأليف يستسيغه الذوق العام وتنعكس عليه ألوان الطبيعة بسحرها وعطرها وشذاها .

ولهذا فقد لاقت الموشحات منذ ظهورها فى الأندلس رواجا كبيراً فى جميع الأقطار العربية لاعتمادها على الغناء وملاءمتها للنفوس الهائمة حيث تنقل المستمع الى نشوة حلوة وجو حبيب .

ولقد كان فى سرعة استجابة جمهرة أهل الأندلس لهذا اللون الجديد من الشعر ومناسبته لأذواقهم ، ومسايرته لمفاهيمهم اللغوية ، ما دعّم هذا الاتجاه الشعبى الجديد . ذلك أن سكان الأندلس لم يكونوا جميعا عربا صرفا فى ذلك الوقت ، بل كانوا مزيجا من العرب والبربر والأسبان ، فان عدد العرب الذين دخلوا أسبانيا فى فترات الفتح كان قليلا جداً . ثم اعتنق الكثيرون من الأسبان الدين الاسلامى وأقبلوا على دراسة اللغة العربية . وهذا مما لا يمكن معه اعتبار مسلمى الأندلس جميعهم من أصل عربى أو مشارقة . لذلك كانت اللغة الدارجة التى يستخدمها أفراد الشعب فى مخاطباتهم وفى معاملاتهم اليومية وداخل بيوتهم مزيجا من اللغة العربية والبربرية والأسبانية ، وأحيانا اللاتينية . وكان فهم الشعر العربى الفصيح مقصوراً على طبقة المثقفين من العرب والقليلين جداً من الطوائف الأخرى . فما كادت تظهر الموشحات ثم الأزجال باللغة الدارجة حتى استجاب لها الشعب ، اذ كانت

بمثابة ألوان من الأدب الشعبي يستطيع فهمها ، وان ارتفعت في ذلك الموشحات عن الأزجال من حيث اللغة قليلا أو كثيراً .

فالزجل والموشحة في واقع الأمر فن شعري واحد . ولكن الزجل يطلق على السوقي الدارج منهما ، اذ لا بد أن يجري باللغة الدارجة ، فقد كان يتغنى به في الطُرقات والأسواق . أما الموشحة فتكون باللغة العـربية الفصحى الا قليلا . واسمها كذلك عربي كما هو واضح . وربما استطعنا أن نقول ان لفظ الموشحة يطلق على المهذب من الزجل الذي يصاغ في أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال . أما سبب تسميتها بالموشح فلأنهم جعلوا تنسيقها وتنميقها بمثابة الوشاح .

ولقد استجاب أهل الأندلس لهذه الألوان الشعبية من الشعر ، كما أقبلت عليها سائرشعوب البلاد العربية اقبالا عظيما، ليسر تناولها وقرب طريقتها ، ولأنها أعفتهم من قيود الاعراب والتزام القوافي . كما سمحت لهم باستعمال الكلمات الدارجة والتعبيرات العامية الطريفة . وامتازت بالسهولة ، مما أكسبها الحياة واطراد التقدم والازدهار .

وقد سارت الموشحات في تطورها على مرحلتين :

مرحلة البداية :

وهي المرحلة التي عاصرها زرياب في أواخر سني حياته . ولئن اتفق المؤرخون على أن فن الموشحات ابتكار أندلسي فقد اختلفوا فيمن يكون هو المخترع الأول لهـذا الفن . فقال ابن بسام في كتابه « الذخيرة » ما نصه :

« وأول من صنع أوزان هـذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها ـ فيما بلغني ـ محمد بن محمود القبرى الضرير » .

أما ابن خلدون فيقول فى مقدمته :

« وكان المخترع الأول بجزيرة الأندلس مقـدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد للمروانى [1]

وظل الكثـيرون من المؤرخين ، العـرب والمستشرقين ، يعتقدون أن الرجلين رجل واحد ، وانما وقع فى احدى الروايتين تحريف فى الاسم ، الى أن نشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى بحثا فى « مجلة الأندلس » الأسبانية بالعدد الثالث عشر من عام ١٩٤٨ أثبت فيـه « أن كلا من الشـاعرين الأندلسيين المنسوبين الى قرية قبْرة معروفان ، ولهمـا تراجم مدونة . ولهذا فليس من داع لأن نفترض أن الاسمين تحريف لواحد عن الثانى » .

واذن يكون محمـد بن محمود شخصا آخر غير مقـدم ابن معافى . وقد ابتكر كل منهما هذا الفن الشعرى فجعله على نظام جديد ونسق جديد من القوافى والأوزان .

ولكن بقى بعد هذا أن نعجب مع الكثيرين من المؤرخين ومع المستشرق « غارسيا غومس » الذى نشر تعليقه على مقال الدكتور الأهوانى فى العدد نفسه من المجلة المذكورة ، فلم يخف عجبـه من أن يكون مخترع فن الموشحات شاعرين ،

---

(١) كانت مدة خلافته ٢٧٥ هـ \ ٨٨٨ م ـ ٣٠٠ هـ /٩١٢ م .

كلاهما من قرية واحدة هي قبرة ، وكلاهما في عصر واحد هو عصر الأمير عبد العزيز بن محمد المرواني !!.

ويعود هؤلاء المؤرخون فيقولون : ولمَ هذا العجب ؟ ولماذا لا يكون اختراع الموشحات متعدد المنابع ، وفي وقت واحد ، وقد بعثت على تكوين هذا الفن عدة مؤثرات اجتماعية واقليمية وأدبية وغنائية . فلا بد من انبعاث هذا الابتكار في محاولات تظهر على ألسنة عدد من الشعراء ، فماذا يمنع والحالة هذه من أن يكون مخترع الموشح شاعرين أندلسيين من قرية واحدة وفي عصر واحد ؟

وعن محمد بن محمود ومقدم بن معافى أخذ أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد وقد عاش بين سنتي ٢٤٠ — ٣٢٨ هـ (٨٦٠ — ٩٣٩ م) في الدولة الأموية في الأندلس . ويروى أنه كان في صباه لاهياً مولعاً بالغناء وقد نظم في ذلك القصائد والمقطوعات الرفيعة الجميلة . وقد سبق أن ألمعنا الى أنه كان في شبابه المبكر ممن عاصروا زرياب من الشعراء في بلاط عبد الرحمن الأوسط .

وكانت الموشحات في بداية أمرها غير ناضجة حتى قال ابن خلدون عن القبري وابن عبد ربه : « ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما » .

ونحن وان لم يصلنا شيء من موشحات هؤلاء الشعراء السباقين الى ابتكار هذه الألوان ، الا أنه يغلب على الظن

أنها كانت ما تزال فى بدايتها ، فلم يعم تداولها ولم يذكرها المتأخرون .

مرحلة الازدهار :

ظلت للموشحات على بساطتها غير ناضجة الى أن ظهر فى نهاية الدولة الأموية بالأندلس أول من برع فى هذا الفن . فقد أقام عماده « عبادة بن ماء السماء » (لا عبادة القزاز كما يذكر ابن خلدون) . وقد توفى عام ٤٢٢ هـ (١٠٤٠ م) وفى هذا يقول ابن بسام فى الذخيرة :

« كان أبو بكر بن ماء السماء فى ذلك العصر شيخ الصناعة ، وامام الجماعة . سلك الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا . وكانت صنعة التواشيح التى نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود . فأقام عبادة هذا منآدها ، وقوّم ميلها وسنادها . فكأنها لم تسمع بالأندلس الا منه ، ولا أخذت الا عنه ، واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته ... » .

ثم تتابع شعراء ووشاحون كان فى مقدمتهم « عبادة القزاز » شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية . وقد تغنى بمحامد بنى صمادح فى موشحات كثيرة . وقد وصفه ابن خلدون بأنه « أول من برع فى هذا الشأن » . وقيل عنه « كل الوشاحين عيال على عبادة » .

ومن أجمل موشحاته التي حازت قصب السبق ، وسادت العصور في تصوير مقدرة أهل هذا الفن الأندلسي ، والتي تعتبر أقدم ما يتغنى به اليوم :

بدر تِمْ شمس ضحا غصن نقا مسك شَمّ
ما أتمْ ما أوضحا ما أورقا ما أنمْ
لا جَرَمْ من لمحا قد عشقا قد حُرِم

وكان « الأعمى التطيلي » من أبرع الوشاحين المتقدمين في الأندلس (توفي عام ٥٢٠ هـ) ومن أجمل موشحاته تلك التي مطلعها :

ضاحك من جُمانْ سافر عن بدرِ
ضاق عنه الزمان وحواه صدري
آه مما أجدْ شفَّني ما أجدْ
قام بي وقعدْ باطش متئدْ
كلما قلت قدْ قال لي أين قدْ

وانثنى خوط بانْ ذا مهزّ نضر عابثته يدان للصبا والقطر

وقد ذكروا أن جماعة من الوشاحين قد اجتمعوا في مجلس باشبيلية ، وقد أعد له كل منهم موشحة منمقة ، فلما تقدم الأعمى التطيلي للانشاد ، وسمعوا استهلال هذه الموشحة ، مزق الباقون موشحاتهم .

ومن أبرع الوشاحين الذين عاصروا عبادة بن ماء السماء وعبادة القزاز والأعمى التطيلي ، الحكيم « أبو بكر محمد ابن الصائغ المعروف بابن باجة » . وقد اختلف في تاريخ وفاته

فقالوا توفى عام ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) أو ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) .
واشتهر بالتبحر فى الفلسفة والموسيقى وقول الشعر الجيد .
وهو الذى أتم نهضة زرياب الغنائية .

حضر يوما مجلس أبى بكر ابراهيم بن تيفلويت صاحب سرقسطة ، فألقى على قيانه موشحته التى مطلعها :

جــرر الذيل أيمـا جــر   وصِلِ الشكر منك بالشكر

حتى اختتمها بقوله :

عقـــد الله راية النصر   لأمــير العـــلا أبى بكر

فصاح الأمير « واطرباه » ، وشق ثيابه . وقال : « ما أحسن ما بدأت وما ختمت » . وحلف الأيمان المغلظة لا يمشى ابن باجة الى داره الا على الذهب فخاف ابن باجة ما قد يتسبب عن ذلك من سوء العاقبة ، واحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه .

***

ويعــزى الى « ابن قزمان » أنه أول من صـــنع الزجل بالأندلس . وهو أبو بكر بن عبد الملك بن قزمان ، وينتسب الى أسرة قزمان من بيوت قرطبة العريقة . ولد فى قرطبة بعد عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م وتوفى عام ٥٥٤ هـ / ١١٦٠ م . ولكن هذا الزعم يبدو بعيدا عن الحقيقة . فقد قرر ابن قزمان نفسه فى مقدمة ديوانه :

« انه وجِد فى الأندلس ضربان من الزجل جنبا الى جنب ، أولهما شعبى جاف غليظ يستعمل فيه الزجالون اللغة الدارجة

وأعجمية أهل الأندلس ، وكان يوافق أذواق العوام . وثانيهما مصقول مهذب ، مصطنع متكلف ، يستعمل الناس فيه حركات الاعراب التى لا تجرى بها ألسنتهم فى دارج الحـديث . ولم يبق من النوع الأول شيء لأن مصطنعى كتب الأدب ازدروه وضربوا عنه صفحا . وأما الثانى فلدينا منـه أطراف ولكنها لاتخلو من الجاذبية وسهولة الطبع التى يمتاز بها النوع الأول » .

لهذا فاننا نقول مع القائلين ان ابن قزمان لم يخترع الزجل كما يزعمون ، انما الذين تقدموه هم مبتكرو هذه الألوان التى قام هو بدراستها ثم شق لنفسه طريقا خاصا فى تصنيف الزجل . ورأى أن من فساد الذوق أن تستعمل حركات الاعراب فى شعر يراد أن يتغنى به للعامة من الناس . فكان رأيه استعمال لغة الكلام الدارجة حتى يقرب من أفهام الجمهور ، على أن يكون ذلك فى أسلوب منمق رشيق وأن يختار من الموضوعات أحفلها بالفكاهة مما يثير اهتمام أوساط الشعب ، وأن تكون سهلة بعيدة عن التعقيد والتكلف ، بل وتجرى على أسلوب يستعمله الناس فى حلقات الموسيقى الشعبية ومجالات اللهو والتسلية والترفيه .

ويضم ديوان ابن قزمان تسعة وأربعين ومائة زجل ، فيها رباعيات وخماسيات وسداسيات وسباعيات وثمانيات وتساعيات وعشريات وآحاد عشريات .

وعلى الرغم من القوالب المبتكرة التى تبدو واضحة فى أزجال ابن قزمان ، فانها تدل فى جلاء على أنها تخضع للطابع

الشعبى ، وأنها انما نظمت ليتغنى بها المنشـــدون فى الأسواق أو الجائلون فى الطرقات .

وقد انصرف الناس بعد ابن قزمان الى صناعة الزجل فى كافة نواحى الأندلس حتى ظهر من الشعراء طائفة برعت فى نظم الزجل البديع المبتكر .

وأقبل الأدباء والشعراء على صوغ هذا الأدب الشـــعبى الجديد من الموشحات والأزجال ، يتسابقون فى تنميقه وتنسيقه ، ويتفننون فى أوزانه وألوانه ســـندهم فى ذلك الموســـيقيون الموهوبون الذين كانوا كأنهم على موعد من هـــذا الانتاج المبتكر ، فكسوه جديدا من الألحان والأنغام التى آذنت بانبثاق فجر نهضة موسيقية جديدة لم يعرفها العرب من قبـــل ، حتى أصبحت الموشحات وألحانها أغلى كنز فى تراث للموسيقى العربية اطلاقا .

وهذه النهضة التى ظهرت فى الأندلس رددت صداها جميع الأقطـــار العربية . وسرعان ما انتقلت للموشـــحات والأزجال بكلماتها وألوانها من الأندلس الى هذه الأقطار ابتداء من بلاد المغرب الى أقصى بلاد المشرق ، حتى قال ابن سعيد فى مصنفه المـغرِب :

« رأيت أزجال ابن قزمان مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب » .

وهكذا لاقت الموشحات والأزجال لقبالا من جميع الأقطار العربية ، ذلك لأنها كانت تجتذب اهتمام الشعب كله بينما الشعر

لا يعنى غير طبقة المثقفين وحدها ... وأخذ كل بلد من البلاد العربية يتفنن فيها وينظمها بلهجته الدارجة تبعا لاختلاف الأقطار والأمصار ، كما أصبحت تعبر عن خصائص كل بلد . لأن اللغة العربية الفصحى عامة فى جميع الشعوب العربية ، أما اللغة الدارجة فلكل قطر لهجته الخاصة به .

وعلى أساس الزجل اخترع عامة بغداد فناً من الشعر الشعبى سموه « المواليا » ، وتبعهم فى ذلك أهل مصر .

***

وفيما يلى نماذج من مختارات هذه الموشحات والأزجال :

من أجمل الموشحات الأندلسية وأرقها موشحة ابن زهر الاشبيلى المتوفى عام ٥٩٥ هـ . وقد نسبها البعض خطأ الى عبد الله بن المعتز . وهى موشحة خالدة يتغنى بها حتى اليوم فى جميع الأقطار العربية :

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

ونديم همت فى غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكا وسقانى أربعا فى أربع

ما لعينى عشيت بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر
فاذا ما شئت فاسمع خبرى

عشيت عيناى من طول البكا   وبكى بعضى على بعضى معى

غصن بان مال من حيث التوى

بات من يهواه من فرط الجوى

خَفِق الأحشاء موهون القوى

كلما فكر فى البين بكى   ويحه يبكى لما لم يقع

وقد وضعت هذه الموشحة على نمط موشحة ابن بقى القرطبى وهو وشاح بارع فى عصر المرابطين توفى عام ٥٤٠ هـ ومطلعها :

عبث الشوق بقلبى فاشتكى   ألمَ الوجد فلبت أدمعى

أيها الناس فؤادى شغف

وهو فى بغى الهوى لا يُنصف

كم أداريه ودمعى يكف

أيها الشادن من علمكا   بسهام اللحظ قتل السبُع

ولابن زهر أيضا موشحة رقيقة مطلعها :

سلم الأمر للقضا   فهو للنفس أنفعُ

واغتنم حين أقبلا

وجه بدر تهللا

لا تقل بالهموم .. لا

كل ما فات وانقضى   ليس بالحزن يرجع

***

ومن موشحة لابن سهيل الاشبيلى المتوفى عام ٦٤٩ هـ :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى [١]

قلب صبٍّ حله عن مكنس [٢]

فهو فى حر وخفق مثل ما

لعبت ريح الصَّبا بالقبس

يا بدوراً أشرقت يوم النوى

غُرَرًا تسلك فى نهج الغَرر [٣]

ما لنفسى فى الهوى ذنب سوى

منكم الحسن ومن عينى النظر

أجتنى اللذات مكلوم الجوى

والتدانى من حبيبى بالفكر

كلما أشكوه وجدى بسما

كالربى والعارض المنتجس

اذ يقيم القطر فيها مأتما

وهى من بهجتها فى عرس

* * *

ومن أجمل الموشحات وأرقها قول لسان الدين الخطيب المتوفى عام ٧٧٥ هـ فى الغزل ووصف الطبيعة :

---

(١) حمى الحمى : منعه ودفع عنه . والمعنى هنا انه استقل وحده بقلبه .

(٢) المكنس : مأوى الظبى .

(٣) الغرر (بضم الغين) : جمع غرة وهى طلعة وجوه الحسان . والغرر (بفتح الغين) : التعرض للتهلكة .

جادك الغيث اذا الغيث همى

يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك الا حلما

فى الكرى أو خلسة المختلس

اذ يقود الدهر أشتات المنى

ينقل الخطو على ما يرسمُ

زُمَراً بين فرادى وثُنَى

مثلما يدعو الوفودَ الموسمُ

والحيا قد جلل الروض سنى

فثغور الروض عنه تبسمُ

وروى النعمان عن ماء السما

كيف يروى مالك عن أنس[1]

فكساه الحسن ثوبا معلما

يزدهى عنه بأبهى ملبس

* * *

ومن موشحة لابن زيدون :

سقى الله أطلال الأحبة بالحمى

وحاك عليها ثوب وشى منمنما

(1) هذا البيت به تورية حلوة . فالنعمان ملك الحيرة ، ولكن المراد هنا شقائق النعمان . وماء السماء هى أم المنذر وجدة النعمان ولكن المراد هنا المطر .

وأطلع فيهـــا للأزاهـــير أنجمـــا
فكم رفلت فيها الخـــرائد كالدمى
اذ العيش غض والزمان غـــــلام

* * *

أهيم بجبـــار يعـــز وأخضـــع
شـــذا المسك من أردانه يتضوع
اذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع
فما أنا فى شىء من الوصـــل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منـــام

ومنها فى ذكر قرطبة :

سقى جنبات القصر صوب الغمائم
وغنى على الأغصان ورق الحمائم
بقرطبـــة الغـــراء دار الأكارم
بلاد بها شـــق الشـــباب تمـــائمى
وأنجبنى قـــوم هنـــاك كـــرام

* * *

ومن موشحة لأبى بكر الأبيض الوشاح :

ما لذ لى شرب راح
على رياض الاقاح

لولا هضيم الوشاح
اذا أسا فى الضباح
أو فى الأصـــيل
أضحى يقول
ما للشـــمول
لطمت خـــدى
وللشـــمال
هبّت فمـــال
غصن اعتدال
ضمـــه بردى

* * *

وقد ظهرت فى ذلك الحين جملة من الموشحات المصرية لابن سناء الملك الشاعر المصرى الذى ولد بالقاهرة عام ٥٥٠ هـ وقضى كل حياته بهـــا حتى توفى عام ٦٠٨ هـ . وهو أول من حاول فى المشرق العربى نظم الموشحات ، ويعتبر صاحب الفضل فى ادخال هذا الفن الى الشرق . وقد وضع كتابه « دار الطراز » موضحا به قواعد فن الموشحات ومحدداً خصائصه وطرق نظمها وأوزانها .

ومن أجمل موشحاته تلك التى مطلعها :

كـــللى يا سحب تيجان الربى بالحلى
واجعلى ســـوارها منعطف الجـــدول

يا سما فيك وفى الأرض نجوم وما
كلما أغربت نجما أطلعت أنجما
وهى ما تهطل الا بالطلا والدمى
فاهطلى على قطوف الكرم كى تمتلى
واقلى للدن طعم الشهد والقرنفل
تتقد كالكوكب الدرى للمرتصد
يعتقد فيها المجوسى بما يعتقد [1]
فاتئد يا ساقى الراح بها واعتمد
وأمل لى حتى ترانى عنك فى معزل
قلل فالراح كالعشق ان يزد يقتل

وهذه الموشحة قالها ابن سناء الملك معارضا موشحة عبادة بن ماء السماء المتوفى عام ٤٢٢ هـ ومطلعها :

من ولى فى أمة أمرا ولم يعدل
يعزل الا لحاظ الرشأ الأكحل
جرت فى حكمك فى قتلى يا مسرف
فانصف فواجب أن ينصف المنصف
وارأف فان هذا الشوق لا يرأف
علل قلبى بذلك البارد السلسل
ينجلى ما بفؤادى من جوى مشعل

---

(١) يعتقد أى يرى فيها المجوسى الالوهية لانها تتقد كمعبوده النار .

ومن موشحة مصرية أخرى لصفى الدين الحلى [1] :

لنا نشــوة فى الدجى فاشــيه

بادراكها أصــلحت شانيه

ترى ظلهــا فى الضحى والمقيــل

أشــد وطاء وأقــ • ـــوم قيــل

فكانت لأنفسنا هاديه ولكنها للعدى داهيه

تبــدت لنــا فمــللتا الحبــا

وقلنـــا لهـــا مرحبــا مرحبــا

بشــمس بــدت قبــل رفع الخبــا

ومن موشحة فى التصوف لمحيى الدين بن عربى الأندلسى . ولد بالأندلس عام ٤٦٨ هـ ونزح الى الشرق ، وطوّف فى أنحائه وتوفى بدمشق عام ٥٤٣ هـ :

ســـرائر الأعيان [2] لاحت على الأكوان

للناظــرين

والعاشــق الغيران من ذاك حـــرّان

يبدى الأنين

يقول والوجــدْ أضــناه والبعــدْ

قد حيّــره

---

(١) صفى الدين الحلى عراقى الأصل واسمه عبد العزيز بن سرايا . هاجر الى مصر واستوطنها منذ عام ١٠٣ هـ — ٧٢٦ م .

(٢) الأعيان : حقائق الأشياء المدركة بالعيان .

لمنا دقا البعدْ لم أدرِ من بَعْدْ

من غيْـزه

وهيَّم العبدْ والواحد الفردْ

قد خيَّره

فى البوح والكتمان يا عابد الأوثان[1]

أنت الضنين[2]

* * *

ومن الأزجال التى اشتهرت فى ذلك الحين قول مَدْغليِّس التونسى :

ورذاذْ دِقّ ينزِلْ

وشعاع الشمس يضرَبْ

فترى الواحد يفضّض

وترى الآخر يذَهّبْ

والنبات يشرب ويسكر

والغصون ترقص وتِطرَب

وتريدْ تيجى الينا

ثم تستحيى وتهرَبْ

* * *

(١) عابد الأوثان : عابد الجسد المادى .

(٢) أنت الضنين : انت البخيل بقهره لتقوية الروح .

وما قصدنا بايراد هذه النماذج من الموشحات الا اعطاء فكرة عن تنوع موازينها واختلاف قوافيها . أما عن الأزجال فقد اكتفينا منها بمثال واحد ، وضربنا عن أكثرها صفحا . ذلك لأن لغة الزجل ، كما قلنا ، تختلف باختلاف لهجات الأقطار العربية ، وهى بلغة عامية دارجة يشق على الكثير فهمها .

وكم كنا نود أن نمضى فى الكلام عن الموشحات والأزجال الى أبعد من ذلك نظراً لأهمية الموشحات فى الموسيقى العربية ، لولا أننا مقيدون بأن تظل فى اطار موضوع هذا الكتاب الذى يترجم لزرياب بادىء هذه الحركة ، ومصدر تلك الثروة .

الفصل الثامن

أثره في أوربا

أثره فى أوربا

كاد الاجماع أن يكون تاما بين المؤرخين وعلماء الاجتماع على أن فتح العرب للأندلس كان أهم حدث حضارى اجتماعى وقع فى العصور الوسطى . ذلك بأنه لم يكن غنما وكسبا للعرب بقدر ما كان نورا ورحمـــة للشعوب الأوربية جمعاء . فلقد انبعثت من بلاد الأندلس حضارة عالمية فاضت على جميع شعوب أوربا بمختلف ألوان المعرفة من علوم وفنون وآداب ، بعد أن ظلت عشرات القرون قبل الميلاد وبعده تخيم عليها ظلمة الجهالة ووحشة الفوضى والاضطرابات .

وسرعان ما وفدت الى الأندلس العـــربية البعـــوث تلو البعوث والوفود تلو الوفود ، من سائر بلاد أوربا ينهلون من علوم العرب وفنونهم . ولم يقتصر الأمر فى ذلك على من يعنيهم الأمر ، ويهمهم طلب المعرفة من الشباب الطموح ومن مختلف الطوائف والهيئات بل كانت هذه البعـــوث مما اهتم به أيضا ملوك أوربا وبذلوا فى ســـبيله عناية ملحوظة ، ولم يقصروا بعوثهم على النابهين من شباب الشعب ، بل ضمنوها صميم أسرهم الملكية وطبقات الأشراف .

وحسبنا هذا المثال دليلا على حاجة أوربا المتعطشة الى المعرفة ، وعلى عظمة الأندلس الاسلامية .

لقد أرسل جورج الثانى ملك الانجليز بابنة أخيه الأميرة « دوبانت » على رأس بعثة من بنات الأشراف ، يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى الذى يحمل كتابا من الملك المذكور الى الخليفة هشام الثالث ، جاء فيه :

من جورج الثانى ملك انجلترا والغال والسويد والنرويج ، الى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام : بعد التعظيم والتوقير ، فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة . فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة . وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة « دوبانت » على رأس بعثة من بنات أشراف الانجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة ، وحدب من لدن اللواتى سيتوفرن على تعليمهن . وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل ، أرجو التكرم بقبولها ، مع التعظيم والحب الخالص » .

من خادمكم المطيع : « جورج »

وكانت الهدية شمعدانين من الذهب الخالص طول الواحد ثلاثة أذرع ، مع أوان ذهبية أخرى عددها اثنتان وعشرون قطعة رصعت بأبدع النقوش ، وتعد من التحف النادرة .

ورد للخليفة هشام على ملك انجلترا بالرسالة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه سيد المرسلين . وبعد : الى ملك انجلترا وايقوسيا واسكندنافيا الأجل ! لقد اطلعت على التماسكم فوافقت ، بعد استشارة من يعنيهم الأمر ، على طلبكم . وعليه فاننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى . أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد . وبالمقابلة أبعث اليكم بغالى الطنافس الأندلسية ، وهى من صنع أبنائنا ، هدية لحضرتكم ، وفيها المغزى الكافى للتدليل على التفاتنا ومحبتنا . والسلام . خليفة رسول الله على ديار الأندلس : هشام » .

ولم تكن هذه هى الأولى ولا الأخيرة من البعثات التى أوفدتها أوربا الى الأندلس ، فقد ذكر المؤرخون أن هذه البعثات بلغ عدد أفرادها عام ٢١٣ هـ ، سبعمائة طالب وطالبة من مختلف مقاطعات اسبانيا وألمانيا وفرنسا ... وهذا التاريخ يقع فى أوائل حكم عبد الرحمن الأوسط ، حيث كان قد مضى على زرياب فى قرطبة سبعة أعوام ، اذ كان قدومه اليها عام ٢٠٦ هـ . وما من شك فى أن كثيرين من أفراد هذه البعثة الكبيرة قد التحقوا ما بين طلبة وطالبات بمدرسة الموسيقى التى أنشأها زرياب فى بلاط عبد الرحمن ، والتى كانت تدرس بها أصول الموسيقى والغناء والعزف بمختلف الآلات وفنون الشعر والرقص .

وتتابعت هذه البعثات من أوربا الى هذه المدرسة ، واتسع أمام أفرادها المجال لتعلم هذه الفنون واستيعابها فى دراسة وافية . ثم عادوا الى بلادهم ينقلون اليها من علوم الموسيقى العربية وفنونها وآلاتها ما يعد من المصادر الأولى لخلق النهضة الفنية بها ، وبمثابة الضوء الذى بدأت به شعلة الفن الموسيقى الأوربى التى قدر لها أن تنمو وتزدهر على توالى الأيام .

ومن ثم عــرفت بلاد أوربا لأول مرة مظهــر الموسيقيين المتجولين الذين يجولون الطرقات ، وهم يعرضــون أغانيهم ورقصاتهم الشعبية ، مرددين فيها ملاحم البطولة وما نقلوه عن عرب الأندلس من قصص ألف ليلة وليلة ، وسندباد ، ويوسف وزليخة وغيرها .

وما كاد يبــدأ القرن الحادى عشر حتى رأينــا جماعات « الطروبادور » تظهر فى جنوب فرنسا ثم فى ألمانيا ، وبعدها جماعات « المينيسنجر » . وكلهــا تتغنى بأوزان جديدة من الشعر استمدوها من ألوان الموشحات والأزجال الأندلسية ، وألحان هى صدى ما لقنته بعثات تلك البــلاد فى قرطبة من موسيقى زرياب ومدرسته وتلاميذه . وقد شابهت فى أغراضها أغراض الموشحات وفى طليعتها الغزل والتغنى بجمال الطبيعة والمدح والحماسة .

وقد قام « ربــيرا » وزملاؤه من المستشرقين ، أمثــال « بالنثيــا » و « بروفنســال » و « كلوت » و « دوزى » و « غومس » وغيرهم من المفكرين ببحوث جبارة ، وأوردوا

أمثلة كثيرة من شعر ذلك العصر فى كل من فرنسا وألمانيا وانجلترا وايطاليا والبرتغال واسبانيا فى مقارنة وموازنة بين تلك الأشعار وبين ما استحدث فى الأندلس من نظام أشعار الموشحات والأزجال ، مبرهنين بهذه الأمثلة ومستشهدين بها على أن ما استجد فى أوربا من أوزان الشعر انما كان انعكاسا لما احتوته الأندلس من هذه الألوان المبتكرة . وقد أثبت هؤلاء المستشرقون أن بعض قوالب القصائد المسماة (بالاد La ballade) والأغانى العاطفية (La chanson courtoise) وغيرها من قصائد شعر التروبادور تتألف من أسماط وأجزاء تشبه الى حد ما فى ترتيبها أسماط الموشحات وأجزاءها ، وتتعدد فيها الأوزان والقوافى . وأن نظم شعراء الطروبادور كان يعتمد فى الأهم على الموسيقى والغناء ، كما هو الشأن فى الموشحات .

بل ان بعض هؤلاء المستشرقين ليقول ان لفظ «طروبادور» ما هو الا تركيب من الكلمتين العربيتين : دور طرب ، قدمت فيه الصفة « طرب » على الموصوف « دور » وفقا لأصول بناء اللغات الأوربية .

وتقول الباحثة الألمانية دكتورة سيجريد هونكه فى كتابها « شمس الله على الغرب ــ فضل العرب على أوربا » ضمن فصل مسهب كتبته عن زرياب :

« ان موسيقى الغناء القديمة ، كان مثلها مثل الشعر القديم ، لا تعرف الايقاع بل تعتمد على مجرد الأوزان التى تنحصر فى

مقاطع طويلة وقصيرة . وان أقدم موسيقى كنسية ترجع الى العصور الوسطى لا تعرف الايقاع ولا الميزان ، وانما تعتمد عادة على وحدات من النغمات متصلة لا يدخلها التوزيع الموسيقى ، وذلك على نمط تقسيم الجمل الكلامية عن طريق الشولات وما اليها تقسيما منتظما » .

أما البناء الايقاعى فهو شرقي أصيل . والايقاع يساعد على خلق « الموسيقى محدودة الزمن » ويؤدى مباشرة الى نظام « المازورة » . وقد يكون هذا هو أهم تراث موسيقى قدمه العرب لأوربا ، أعنى « الموسيقى محدودة الزمن » التى أدت مباشرة الى ايجاد المازورة .. أما نظرية الموسيقى فى المؤلفات الأسبانية العربية فقد ظهرت فى المصنفات اللاتينية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وأما التراث الثانى الذى ورثته أوربا فى الموسيقى عن العرب فهو الزخرفة اللحنية العربية . ويلاحظ تمسك العرب فى التأليف الموسيقى بالمبدا الأفقى [1] . وهذا هو سر ميل العربى الى الموسيقى الغنائية أكثر من ميله الى موسيقى الآلات .

وتدين أوربا الى العرب فى أكثر آلاتها الموسيقية ، بعد أن أهدت لبيزنطة آلات الأرغن والقانون والجنك (الهارب) ... وقد جاءت كثرة هذه الآلات العربية عن طريق اسبانيا الى أوربا وما زالت محتفظة بأسمائها العربية . فمن الآلات الوترية : العود والقيثارة والمندولا والمندولين والطنبور والسنطور

---

(١) تعنى بذلك أن الموسيقى العربية لحنية لا تدخلها الهارمونى المبنية على تآلفات راسية .

والقانون ، ومن الآلات الوترية ذات القوس : الرباب . ومن آلات النفخ : النفير والناى والمزمار . ومن الآلات الايقاعية : الصاجات والنقارة والدف والطبل وغيرها » .

ثم تستطرد هـذه الباحثة الألمانية المستشرقة فتقـول فى موضع آخر من هذا الفصل :

« وبينما نجد الموسيقيين الأوربيين يعتمدون على ضبط الآلات الوترية على الأذن نجد طالب الموسيقى فى مدرسـة زرياب يتعلم العزف بالعفق على دساتين وضعت على رقبة العود والجيتار ، قد قيست عليها المسافات الصوتية قياسا دقيقا . وتعد هذه من المزايا الكبرى التى حببت الآلات الموسـيقية العربية الى الأوربيين وبخاصة العود .

وربما كانت هـذه الآلات هى التى دفعت الأوربيين الى معرفة الهارمونى ، وربما الى العفق أو العزف بالقوس لعدة أوتار فى وقت واحد فى أبعاد الرابعة والخامسة والجواب مما يناسب الميل الأوربى الى التأليف العمودى ، وقد دفعتـه الى خلق الموسيقى الهارمونية » .

ثم تستطرد الكاتبة فى هذا البحث الى ذكر أسماء طائفة من الأوربيين قاموا بترجمة مؤلفات العرب فى الموسيقى ممن أفادوا من مدرسة زرياب أو تلاميذها ، الى أن تقول :

« أما المقاطع : دو ـ رى ـ مى ـ فا ـ صول ـ لا التى يقال عنها انها من وضع جيدو الأريزى حوالى عام ١٠٢٦ م وانها عبارة عن أوائل مقاطع سطور ترنيمة يوحنا ، فان الواقع

أن هذه المقاطع الموسيقية انما اقتبست من المقاطع النغمية للحروف العربية : د ــ ر ــ م ــ ف ــ ص ــ ل (وتجمعها الكلمتان : در مفصل) [1] . وهذه كثيرا ما نجدها فى مصنفات موسيقية لاتينية مشتملة على كثير من المصطلحات العربية . وهذه المصنفات اللاتينية ترجع الى القرن الحادى عشر ، وقد عثر عليها فى جبل « كاسينو » الذى كان يقيم فيه العرب » .

وعادت الدكتورة سيجريد فى فصل آخر من كتابها تشير الى فضل زرياب على أوربا من زاوية أخرى هى زاوية فن الغناء . فقالت ما ملخصه : « أما الدور الهام فى نقل فن الغناء العربى الى القصور الملكية المسيحية فقد قام به الجوارى الأسيرات اللواتى كانت القصور الملكية المسيحية تحرص على الاحتفاظ بهن للموسيقى والغناء والرقص والسمر ، وان ذلك لم يكن مقصورا على القصور الملكية فحسب ، بل وقصور الأشراف أيضا . وكان هؤلاء المغنيات يتحلين بحلى الأندلسيات ويلبسن لباسهن ، وكن فتيات جميلات وسيدات جميعهن سمراوات البشرة سوداوات العيون يرقصن رقصات أندلسية غاية فى الروعة . وكن يعاملن الناس معاملة كريمة غاية فى الظرف ، كما كان يتمتع هؤلاء المغنيات العربيات بتقدير وحب عظيمين » .

***

لقد مضيت فى هذا الفصل حريصا على تسجيل الشهادات

---

(١) ذكر العالم الانجليزى هنرى جورج فارمر مثل هذا القول فى مؤلفاته عن الموسيقى العربية .

الناطقة بفضل زرياب والأندلس على أوربا ، بما سجله الأوربيون أنفسهم ، مما يعتز به تاريخ العروبة وتراثها .

ونختتم هذا الفصل بموجز من دراسات وبحوث فى هذا الموضوع ، توضيحا لبعض ما قدمنا واستيفاء لتفاصيله ، بقدر ما يسمح به مجال هذا الكتاب :

لقد انتشرت فى جميع الممالك الأوربية ، ولا سيما البلاد الجنوبية منها آلات الموسيقى الأندلسية العربية . وكثير منها انتقل اليها بأسمائها التى تنم عن اشتقاقها من أصل عربى كالعود [1] والقيثارة والجيتار (Guitar) ، والنقاورة (Nacaire) أو (Naker) ، والدف (Adufe) ، والصنوج (Sonajas) والرباب (Rebec) أو (Rubebe) ، والنفير (Anafil) وجمعه أنفـار (Fanfare) ، والطبل (Taber) أو (Tabel) ، والقرن (Horn) أو (Corno) الخ .

ومعلوم أن الآلات الموسيقية لا تنتقل الا ومعها موسيقاها . وهذا هو الواقع فان أوربا ظلت تحت غزو الموسيقى العربية وآلاتها ، فنونها وعلومها ، عدة قرون طويلة حتى بعد عصر الاصلاح . بل لقد ظل استعمال العود منتشرا فيها حتى القرن

(١) العود معناه الخشب . وقد انتقل اللفظ العربى الى جميع اللغات الاوربية وحسبنا أن نسجل هنا أسماءه فى اللغات الآتية : الاسبانية Laud . البرتغالية Alaude . الانجليزية Lute . الفرنسية Luth . الايطالية Liuto . الالمانية Leute . الدانيماركية Lut . السويدية Lute . الروسية Ljutnja . البولونية Lutnia . الفنلنـدية Luutu . الصربية Lutnja . المجـرية Lant . الرومانية Lêuta . وهكذا .

السابع عشر ، حيث قضى عليه ظهور آلة البيانو وذيوعها لمناسبتها للموسيقى الأوربية الحديثة بعد أن تطور فيها علم الهارمونى وصار علما على تلك الموسيقى .

أما الرباب ويرجع الى العرب فضل احياء هذا النوع من الآلات ذات القوس فقد انتقلت أيضا من الأندلس الى أوربا ، وبخاصة الى البلاد الجنوبية منها . وكان الفضل الأول فى ذلك لزرياب ومدرسته وتلاميذه . وكانت وقتئذ ذات أربعة أوتار تتفاضل فى الغلظ بين كل اثنين منها . ومن ذلك الوقت عرفت أوربا لأول مرة الآلات الوترية ذات القوس ، وكان ذلك حوالى القرن الحادى عشر . وهنا بداية ظهور أسرة الكمان . فقد صنع الفرنسيون آلة تماثل الرباب العربية سموها Rubebe أو Rubella كما صنع الطليان نفس هذه الآلة وسموها روبيكه Rubece أو ريبك Rebec وظاهر فى كل هذه الألفاظ اشتقاقها من كلمة الرباب . ثم انتشرت تلك الآلات فعمت أوربا فى القرن الرابع عشر ، وأخذ التغيير يتناولها شيئا فشيئا حتى آخر القرن الخامس عشر ، فسميت تلك الآلات « الڤيولا » ومعناها الوتر . وصنع منها على مرور الزمن أنواع مختلفة الحجم ثم تطورت الڤيولا فى منتصف القرن السابع عشر ، وصنعت آلة أصغر منها قليلا أطلق عليها اسم « ڤيولينة » أو « ڤيولينو » ، تصغير ڤيولا (وتلك هى الآلة المعروفة لدينا الآن باسم آلة الكمان أو الكمنجة) .

كذلك ظلت أوربا حتى القرن الثامن عشر تستعمل التدوين

الجدولى « الآلى » على شكل (تابلاتور) يبين مواضع عفق الأصابع على الأوتار وكيفية العزف بها وقد أخذت هذا النوع أيضا ــ فى الأهم ــ من بلاد الأندلس .

وانى ما أزال أذكر ما قاله الدكتور « كورت زاكس » الأستاذ الأول فى جامعة برلين لتاريخ الآلات الموسيقية ، فى محاضرة له عن تاريخ « البيانو » حيث استهلها بقوله :

« من الثابت أن جميع آلاتنا الموسيقية مصدرها الشرق ، وقد انتقلت منه الى أوربا بأكثر من طريق . والآلة الوحيدة التى كانت تعتز أوربا بأنها من مبتكراتها هى آلة البيانو . ولكن ثبت أيضا أن هذه الآلة مصدرها عربى أندلسى . فان أقدم لفظ أوربى أطلق على هذه الآلة فى اللغات الفرنسية والانجليزية والأسبانية هو « Echiquier » وهو اللفظ العربى « الشقير » وكان يطلق حتى القرن الرابع عشر على آلة صغيرة ذات مفاتيح سوداء فبيضاء على التوالى توضع على المنضدة أثناء العزف ، وتعتبر هذه الآلة احدى الحلقات الأولى التى تطورت منها آلة البيانو . واذ أن هذه التسمية ليس لها نظير فى المشرق العربى، فالمعتقد أنها احدى مبتكرات زرياب فى الأندلس» .

***

اننا لم نعرف فى الأندلس ، وقل أن نعرف فى غيرها من حسّن فى الآلات ، وزاد فى الأوتار ، وأنشأ فى الألحان مثل زرياب . ولم يكن غيره فى الأندلس يمكن أن يتصور اسناد هذا الابتكار اليه ، سوى منشىء المدرسة ، ومبتكر أساليب الغناء ، والموحى بالجديد من الشعر والموشحات والأزجال ...

النهـــاية

تشرق الشمس على العالم ، ويتألق نورها فى الأفق مرسلا أشعته الذهبية ضياء ينير طريق البشر . ومهما عظم هذا التألق ، ومهما قوى هذا الاشـــعاع فلا بد للشمس أن يدركها المغيب وللضوء أن يختفى وللأشعة أن تمّحى .

وهكذا مصير كل شيء حى . فلكل بداية نهاية . والانسان مهما ذاع صيته وبلغت شهرته ، ومهما ملأ الدنيا نشاطا ... فلا بد لهذا كله أن يقف ولا بد للشعلة أن تنطفيء ...

استطاع زرياب أن يقهر الحوادث أمام قوة عزيمته ، وأن يجتاز المكايد فى بغداد والمحنة فى القيروان . وأن يتغلب على الحساد والمتآمرين ضده فى قرطبة ، فشق لنفسه طريق المجد ، واخترع للموســيقى وآلاتها ، وابتكر الألحان ونظــرياتها ، وأنجب ذرية لروحه من تلاميذه وذرية لبيته من أبنائه وبناته . وعلم من الجوارى ومن الحرائر ، وجدد فى كل نواحى الحياة . فلم يكن نجما من نجوم النهضة الموسيقية فحسب ، بل كان مصلحا اجتماعيا ورسولا من رسل المدنية والتجديد .

لقد خلف من التراث الموسيقى أكثر من عشرة آلاف لحن وضاعت أكثرية هذا التراث الغالى شأن كل شيء يضعه القدر تحت رحمــة الرواية والنقــل ، ولم يتناوله التسجيل وقلم

التدوين . ولكنه على الرغم من ذلك ترك من الآثار الفنيـــة ما أضاء للموسيقى العربية طريق التطور والتجديد وما أثر فى الموسيقى الغربية جيلا بعد جيـــل وقد خلق اليقظة الفنية فى المشرق والمغرب . واذا كان قد حدث فيها بعـــد ذلك الكثير والكثير من وسائل التجديد والابداع ، وفقا لسنة الحياة ، فان الفضل للمتقدم ولباعث هذه النهضة من بدايتها .

وكما عاش زرياب مجهول تاريخ المولد فقد مات أيضا دون أن يعرف على وجه التحديد تاريخ وفاته . ومن العجيب ألا يعنى أحد من جميع هذه المصادر التى تناولت سيرته وأخباره قديمها وحديثها بالتنويه بتاريخ وفاته . على أننا كما قدرنا لميلاده تاريخا تقريبيا استخرجناه من مجموع حـــوادث حياته ، فاننا نستطيع كذلك أن نحدد تاريخ وفاته بحوالى ســـنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) . أى مع انتهاء حكم عبد الرحمن الأوسط . وذلك لأننا لم نعـــد نسمع شيئا عن أخباره طوال عهـــد محمد بن عبد الرحمن الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه فى هذا التاريخ وامتد حكمه حتى سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) .

ومما يؤيد هذا الرأى عودة خصمه يحيى بن حكم الغزال الذى كان قد نفاه عبد الرحمن الأوسط ، وخرج الى العراق على نحو ما سبق أن ألمعنا اليه . فقد عاد هذا الشاعر الى قرطبة بعد موت زرياب ، وفى بداية عهد محمد بن عبد الرحمن الذى كان خامس خليفـــة من الأمويين عاصرهم يحـــيى . وفى ذلك يقول :

أدركت بالمصر ملوكا أربعهْ

خامسها هـذا الذى نحن معهْ

* * *

وهكذا عاش زرياب حياة كلها حركة بين أخذ ورد ، وجزر ومد ، ويأس وأمل ، وشقاء وهناء ، وبؤس وسعادة ، حتى انتهت الحياة وهى قصيرة مهما طالت . وكأنما هو يصفها فى شعره ، حين يقول :

عَلِقْتُها ريحانة هيفاء عاطرة نضيره

بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيره

لله أيام لنا سلفت على دير المطيره

لا عيب فيها للمتيم غير أن كانت يسيره

وقد قال عبد الرحمن الشمر ، منجم عبد الرحمن الأوسط ونديمه ، فى زرياب :

يا على يا بن نافع يا علىْ

أُنت أنت المهذب اللوذعىْ

أنت فى الأصل حين يسأل عنه

هاشمى وفى الهوى عبشمى

ولعل هذه الذكرى على عظمتها من التاريخ تقدم فى عبرتها الدروس والمثل لمن يقهرون الصعاب ، فى سبيل بناء المجد الرفيع .

عهود الخلفاء

من بنى العباس وبنى امية فى الاندلس

فى تصنيف هذا الكتاب تطيف بنا فصوله وموضوعاته على اسماء من بنى العباس فى المشرق وبنى أمية فى الأندلس . وقد رأينا أن نسجل عهود هؤلاء الخلفاء من بدايتهم الى نهايتهم ، تمكينا لطلاب البحث من تتبع مراحل هذه العهود فيما له علاقة وثيقة بموضوعات هذا الكتاب .

***

خلفاء بنى العباس (١٣٢ هـ/٧٥٠ م ـ ٦٥٦هـ/١٢٥٨ م)

(أ) العصر العباسى الأول ـ الذهبى : (١٣٢ هـ/٧٥٠ م ـ ٢٣٢ هـ/٨٤٧ م)

أبو العباس عبد الله السفاح	(١٣٢ هـ/٧٥٠م ـ ١٣٦ هـ /٧٥٤ م)
أبو جعفر المنصور	(١٣٦ هـ/٧٥٤ م ـ ١٥٨ هـ/٧٧٥ م)
محمد المهدى بن المنصور	(١٥٨ هـ /٧٧٥ م ـ ١٦٩ هـ/٧٨٥ م)
الهادى بن المهدى	(١٦٩ هـ/٧٨٥ م ـ ١٧٠ هـ/٧٨٦ م)
هارون الرشيد	(١٧٠ هـ/٧٨٦ م ـ ١٩٣ هـ/٨٠٩ م)
محمد الأمين	(١٩٣ هـ/٨٠٩ م ـ ١٩٨ هـ/٨١٣ م)
عبد الله المأمون	(١٩٨ هـ/٨١٣ م ـ ٢١٨ هـ/٨٣٣ م)
ابو اسحاق محمد المعتصم	(٢١٨ هـ/٨٣٣ م ـ ٢٢٧ هـ/٨٤٢ م)
الواثق بالله بن المعتصم	(٢٢٧ هـ/٨٤٢ م ـ ٢٣٢ هـ/٨٤٧ م)

(ب) العصر العباسى الثانى ـ الاضمحلال : (٢٣٢ هـ/٨٤٧ م ـ ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م)

المتوكل على الله بن المعتصم	(٢٣٢ هـ/٨٤٧ م ـ ٢٤٧ هـ/٨٦١ م)
المنتصر بن المتوكل	(٢٤٧ هـ/٨٦١ م ـ ٢٤٨ هـ/٨٦٢ م)
المستعين بالله بن المعتصم	(٢٤٨ هـ/٨٦٢ م ـ ٢٥٢ هـ/٨٦٦م)
المعتز بن المتوكل	(٢٥٢ هـ/٨٦٦ م ـ ٢٥٥هـ/٨٦٩ م)

المهتدى بالله بن الواثق (٢٥٥ هـ/٨٦٩ م – ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م)
المعتمد على الله بن المتوكل (٢٥٦ هـ/٨٧٠ م – ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م)
محمد المعتضد بالله (٢٧٩ هـ/٨٩٢ م – ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م)
المتقى لله بن المقتدر (٢٨٩ هـ/٩٠٢ م – ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م)
المقتدر بالله بن المعتضد (٢٩٥ هـ/٩٠٨ م – ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م)
القاهر بن المعتضد (٣٢٠ هـ/٩٣٢ م – ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م)
الراضى بالله بن المقتدر (٣٢٢ هـ/٩٣٤م – ٣٢٩ هـ/٩٤٠ م)
المتقى بالله بن المقتدر (٣٢٩ هـ/٩٤٠م – ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م)
المستكفى بالله بن المكتفى (٣٣٣ هـ/٩٤٤ م – ٣٣٤ هـ /٩٤٥ م)

(جـ) العصر العباسى الثالث – السقوط : (٣٣٤ هـ/٩٤٥ م – ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م)

المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤ هـ/٩٤٥م – ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م)
الطايع لله بن المطيع (٣٦٣ هـ/٩٧٣ م – ٣٨١ هـ/٩٩١ م)
القادر بالله بن اسحاق (٣٨١ هـ/٩٩١ م – ٤٢٢ هـ/١٠٣١ م)
القائم بأمر الله بن القادر (٤٢٢ هـ/١٠٣١ م – ٤٦٧ هـ/١٠٧٤م)
المقتدى بأمر الله (٤٦٧ هـ/١٠٧٤م – ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م)
المستظهر بالله بن المقتدر (٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م – ٥١٢ هـ/١١١٨م)
المسترشد بالله (٥١٢ هـ/١١١٨ م – ٥٢٩ هـ/١١٣٤م)
الراشد بالله بن المسترشد (٥٢٩ هـ/١١٣٤م – ٥٣٠ هـ/١١٣٥م)
المقتفى لأمر الله (٥٣٠ هـ/١١٣٥م – ٥٥٥ هـ /١١٦٠م)
المستنجد بالله بن المقتفى (٥٥٥ هـ/١١٦٠ م – ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م)
المستضىء بأمر الله (٥٦٦ هـ/١١٧٠م – ٥٧٥ هـ/١١٧٩م)
الناصر لدين الله (٥٧٥ هـ/١١٧٩م – ٦٢٢ هـ/١٢٢٥م)
دولة بنى امية بالأندلس : (١٣٨ هـ/٧٥٦ م – ٤٢٢ هـ/١٠٣١ م)
عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨ هـ/٧٥٦ م – ١٧٢ هـ/٧٨٨ م)
هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ هـ/٧٨٨ م – ١٨٠ هـ/٧٩٦ م)
الحكم بن هشام (١٨٠ هـ/٧٩٦ م – ٢٠٦ هـ/٨٢٢ م)
عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ هـ/٨٢٢ م – ٢٣٨ هـ/٨٥٢ م)
محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨ هـ/٨٥٢ م – ٢٧٣ هـ/٨٨٦ م)
المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣ هـ/٨٨٦ م – ٢٧٥ هـ/٨٨٨ م)
عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٥ هـ/٨٨٨ م – ٣٠٠ هـ/٩١٢ م)
عبد الرحمن بن الناصر بن محمد (٣٠٠ هـ/٩١٢ م – ٣٥٠ هـ/٩٦١ م)
المستنصر الحكم بن عبد الرحمن (٣٥٠ هـ/٩٦١ م – ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م)

الحاكم	المدة
هشام المؤيد بن الحكم	(٣٦٦ هـ/٩٧٦ م – ٣٩٩ هـ/١٠٠٨م)
المهدى محمد بن هشام	(٣٩٩ هـ/١٠٠٨ م – ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م)
سليمان المستعين بالله	(٤٠٠ هـ/١٠٠٩م – ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م)
المهدى محمد بن هشام (ثانية)	(٤٠٠ هـ/١٠٠٩م – ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م)
هشام المؤيد بن الحكم (ثانية)	(٤٠٠ هـ/١٠٠٩م – ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م)
سليمان المستعين بالله (ثانية)	(٤٠٣ هـ/١٠١٢ م – ٤٠٧ هـ/١٠١٦ م)
ملك بنى حمود	(٤٠٧ هـ/١٠١٦م – ٤١٤ هـ/١٠٢٣م)
المستظهر عبد الرحمن بن هشام	(٤١٤ هـ/١٠٢٣م – ٤١٤هـ/١٠٢٣ م)
المستكفى محمد بن عبد الرحمن	(٤١٤ هـ/١٠٢٣ م – ٤١٥ هـ/١٠٢٣م)
ملك بن حمود (ثانية)	(٤١٥ هـ/١٠٢٤ م – ٤١٨ هـ/١٠٢٧م)
المعتمد هشام بن محمد	(٤١٨ هـ/١٠٢٧ م – ٤٢٢هـ/١٠٣١ م)

المراجع

المصادر العربية :

ابراهيم رزقانه ومحمد صفى الدين : الوطن العربى

ابن أبى دينــار : كتاب المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس

ابن الابار (تحقيق حسين مؤنس) : الحلة السـيراء

ابن الاثير : الكامل فى التاريخ

ابن الساعى : مختصر أخبار الخلفاء

ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية .

ابن العماد الحنبلى : أخبــار من ذهب

ابن النـديم : الفهـرست

ابن اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى

ابن بســام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

ابن بشـكوال (أبو القـاسم خـلف ابن عبد الملك) : كتاب الصـلة فى تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم

ابن جوقل : كتاب المسـالك والممالك

ابن خلدون : ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر
ـ المقدمة

ابن خلكان : وفيات الاعيان وأنباء أهل الزمان

ابن رشـيق : العمـدة

ابن سعيد (تحقيق شوقى ضيف) : المغرب فى حلى المغرب

ابن سناء الملك : دار الطراز فى عمل الموشحات

ابن شهيد الأندلسى : رسالة التوابع والزوابع

ابن عبد ربه : العقـد الفريد

ابن عساكر : التاريخ الكبير

ابن عميرة الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس

ابن نباتة المصرى : سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون

أبو الطيب محمد الوشاء : الوشى (أو الظرف والظرفاء)

أبو الفرج الاصفهانى : الأغانى
أبو حيان التوحيدى : الايقاع والمؤانسة
أبو على القالى : الأمالى
أحمد الاسكندرى وأحمد أمين ورفاقهما : المفصل فى تاريخ الادب العربى
أحمد أمين : ــ فجر الاسلام .
ــ ضحى الاسلام
ــ ظهر الاسلام
أحمد تيمور (باشا) : الموسيقى والغناء عند العرب
أحمد ضيف : بلاغة العرب فى الأندلس
أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون
أحمد فكرى : المسجد الجامع بالقيروان
الابشيهى : المستطرف
الثعالبى : يتيمة الدهر
الجاحظ (تحقيق أحمد زكى باشا) : التاج فى أخلاق الملوك
الحفنى (محمود أحمد) : الموسيقى العربية وأعلامها
ــ تراثنا الموسيقى (القسم التاريخى)
ــ اسحاق الموصلى
الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد
السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
العينى الحنفى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان
الفتح بن خاقان : مطمح الانفس ومسرح التأنس
الكندى (تحقيق الحفنى) : ــ رسالة فى خبر تاليف الألحان
ــ رسالة فى أجزاء خبرية فى الموسيقى
المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر
المقرى : نفح الطيب
المقريزى : السلوك فى معرفة دول الملوك
النويرى (شهاب الدين أحمد) : نهاية الأرب فى فنون الادب
الياس الايوبى : تاريخ مصر الاسلامى
اميليو غرسيه غومس (عربه حسين مؤنس) : الشعر الأندلسى
آنخل جنثالث بالينثيا (عربه حسين مؤنس) : تاريخ الفكر الأندلسى

انطون صالحانی : رنات المثالث والمثانی
بطرس البستانی : أدباء العرب فی الأندلس
بروكلمان : تاريخ الأدب العربی
بلانثيوس : آسين (عربه حسين مؤنس) : تاريخ الآداب الأندلسية
جرجی زيدان : تاريخ التمدن الاسلامی
جميل نخلة المدور : حضارة الاسلام فی دار السلام
جوده الركابی : فی الأدب الأندلسی
جوستاف لوبون : حضارة العرب
حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسی والدينی والثقافی
حسن حسنی عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس
حسن خليفة : الدولة العباسية (قيامها وسقوطها)
حسين مؤنس : ـ فتح العرب للمغرب
ـ فجر الأندلس
خير الدين الزركلی : الأعلام
فروانيه (ترجمة عن دائرة المعارف الاسلامية) : تاريخ الموسيقى العربية
سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربی
سيجريد هونكه (ترجمة فؤاد حسنين علی) : شمس الله على الغرب (فضل العرب على أوربا)
شهاب الدين النويری : نهاية الأرب فی فنون الأدب
شوقی ضيف : ـ الفن ومذاهبه فی الشعر العربی
ـ الفن ومذاهبه فی النثر العربی
ـ ابن زيدون
عبد الحميد العبادی : المجمل فی تاريخ الأندلس
عبد الرحمن البرقوقی : حضارة العرب فی الأندلس
عبد الرحمن صدقی : الحان الحان
عبد الكريم العلاف : الطرب عند العرب
عبد المنعم الحميری : صفة جزيرة الأندلس
علی حسنی الخربوطلی : العرب فی أوربا
فارمر (ترجمة حسين نصار) : تاريخ الموسيقى العربية
فايد العمروسی : الجواری المغنيات

فيليب قعدان الخازن : العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات .

كامل كيلانى نظرات فى تاريخ الادب الأندلسى

لسان الدين الخطيب : الاحاطة فى تاريخ غرناطة

ليفى بروفنسال (ترجمة محمد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى) : الاسلام فى المغرب والاندلس

محمد الخضرى : محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية

محمد كرد على : غابر الأندلس وحاضرها
— الاسلام والحضارة العربية

محمد عبد الله عنان : — دولة الاسلام فى الاندلس
— تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين
— نهاية الاندلس
— الآثار الاندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال

محمود مصطفى : الادب العربى وتاريخه فى العصر العباسى

محيى الدين علىّ التميمى المراكشى : تاريخ الأندلس (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب)

مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب

نيكل : الشعر الأندلسى

ياقوت الحموى : معجم الأدباء
— معجم البلدان

يوسف أشباخ : تاريخ الاندلس

مصادر إفرنجية

1. Adler, G.: Handbuch der Musikgeschichte.
2. Adler, G.J.: The poetry of the Arabs of Spain.
3. Bauer and Peyser: Music through the ages.
4. Beichart: Die Wissenschaft der Musik bei Al Farabi.
5. Berner, A.: Studien zur arabischen Musik.
6. Brockelmann: Geschichte der Arabischen Literatur.
7. Clot, A.: Studien zur Arabischen Musik.
8. Dozy, R.: Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711—1110).
9. Ecker, L.: Arabischer, provenzalischer und deutscher Minnesang.
10. El-Hefny, M. A.: Ibn Sina's Musiklehre.
11. Encyclopédie de l'Islam, éd. française.
12. Erman-Ranke: Aegypten.
13. Farmer, H. G.: A History of Arabian Music to the 13th Century.
14. Farmer, H. G.: Studies in Oriental Musical Instruments.
15. Hartmann, M.: Das arabische Strophengedicht. Das Muwassah.

16. Hunke, S.: Allahs Sonne über dem Abendland (Unser arabisches Erbe).

17. Jeanroy, A.: La poésie lyrique des Troubadours.

18. Lachmann, R.: Musik des Orients.

19. Lévi-Provencal, E.: Histoire de l'Espagne musulmane.

20. Nykl, A. R.: Hispano-Arabic Poetry.

21. Ribera, J.: La Musica arabe y su influencia en la Espanola.

22. Rouanet, J.: La Musique Arabe.

وغير ذلك من البحوث ودوائر المعارف والمفاهم والمجلات العربية والافرنجية .

تصويب : ص ٨٠ سطر ١٥ صوابه كما يأتى :

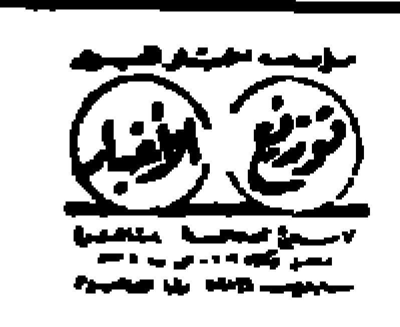
للخوارج . غير أن هؤلاء الخوارج اقسموا على أنفسهم الى

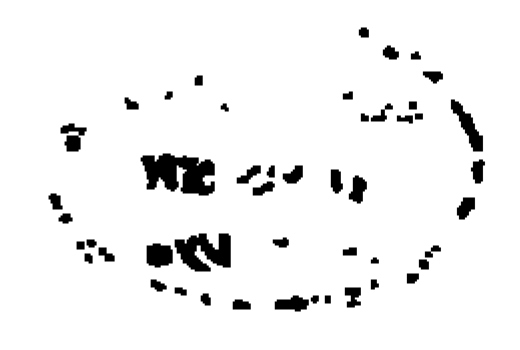
الفهرست

صفحة

● أكثر من ١/٢ مليون يقرأون مجلة الإذاعة والتليفزيون كل أسبوع

● أعلى رقم وصلت إليه توزيع مجلة في الشرق الأوسط





القاهرة في ... سنة ١٩٦٥

السيد الأستاذ رئيس تحرير
مجلة الإذاعة والتليفزيون الغراء

تحية طيبة وبعد

يسرنا أن نهنئكم بالعيد الثلاثين لصدور مجلة الإذاعة والتليفزيون راجين لها دوام التقدم والازدهار خصوصا وقد وصل توزيعها في نهضتها الجديدة الى رقم ٧٠٠٠٠ نسخة داخل الجمهورية العربية المتحدة .

وإذا أضيف الى هذا الرقم، الموزع بمعرفتكم رأسا في الجهات الاخرى وهي :

١ ـ توزيع الخارج بالبلاد العربية .
٢ ـ الاشتراكات .
٣ ـ الهدايا والمسابقات والمبادلات .

لاتضح لنا أن مجلة الإذاعة قد حققت أرقاما تزيد عن المائة ألف نسخة وهي أرقاما قياسية .

نرجو إعداد العدة لتدبير ما يناسب هذه الكميات من الورق والخامات حتى لا تفاجأ بأزمة مواقف قد تعترض التوزيع .

والى توفيق دائم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،،،

توزيع الأخبار



٧٤,٨٨٥	توزيع داخل ج.ع.م
١٣,٣٧٣	توزيع خارج ج.ع.م
١١,٢١١	الاشتراكات
٢,٨٦٤	الهدايا والمبادلات
١٠٢,٣٣٣	المجموع

وسام من الرأي العام

مجلة الإذاعة التي ظلت ثلث قرن من الزمان .. تحوز ثقة قرائها الذين يتزايدون كل عام .. ومع تزايدهم .. يزداد نجاحها ووثباتها نحو الأمام .. وفي عدد المجلة الممتاز .. الذي صدر في عيد النصر .. الأسبوع الماضي .. كانت «الإذاعة» .. على موعد مع وثبة جديدة من وثبات النصر .. فرغم مضاعفة كمية المطبوع من المجلة أكثر من كل أسبوع .. فقد ارتفعت نسبة توزيع المجلة .. حتى التهمت السوق كل ما طرح من النسخ .. وكسلعة مطلوبة ومحبوبة .. خضعت لنظرية العرض والطلب .. وظهرت السوق السوداء لتتحكم في توزيع المجلة طمعا في الحصول على «نتيجة العام الجديد» الملونة .. ونزولا على رغبة الجماهير .. نعيد نشر النتيجة .. ونضاعف كمية المطبوع من «الإذاعة» .. ونعد القراء بأن نظل دائما وراء كل جديد يثري حقل المعرفة .. ونضيف الى أمجادنا الثقافية الفائتة رقيمة . ومع أطيب تمنياتنا بالعام الجديد - كل عام وأنتم بخير .

«الإذاعة»

هذا التفوق الساحق دليل على وعي القارئ العربي وتأكيد لنجاح برامج الإذاعة والتليفزيون وتذوق الجماهير للعمل الفني في السينما والمسرح

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

أعلام العـ

كتاب القا

الكندي المؤ

أبو عمر محمد بن يو

وكتابه الولاة وا

بقلم

الدكتور حسين ا

الناشر : مكتبة مصر بالفجالة

الثمن : ١٠ قروش